1 سِلسِلةُ الحياةِ الطيّبة

المُبصِرون

من وصايا الإمام الباقر عليه السلام لتلميذه جابر





جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

سِلسِلةُ الحَياةِ الطيِّبة

المُبْصِرُون

من وصايا الإمام الباقر عليه السلام لتلميذه جابر

اسم الكتاب:	المبصرون، من وصايا الإمام الباقر عليه السلام لتلميذه جابر
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2015م - 1436هـ



المُبْصِرُون

من وصايا الإمام الباقر عليه السلام لتلميذه جابر



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾

سُورَةُ الأَعۡرَافِ (٢٠١)

الفهرس

المقدمة

الحمـد للّه رب العالميـن، والصلاة والسلام علـى أشرف الخلق وأعزّ المرسليـن سيّدنا ونبينا محمد وعلى آله الطاهرين المعصومين عليهم السلام ، وبعد.

القيم الأخلاقية هي مجموعة المبادئ والقواعد المنظِّمة لسلوك الفرد والمجتمع المسلم، والتي يُحدّدهـا الوحي الإلهي، ومن أنزل عليـه الوحي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليهم السلام ، وذلك من أجل تنظيم حياة الإنسـان، وتحديـد علاقته بغيره علـى نحو يحقّق الغاية مـن وجوده في هذه الدنيـا. وهذا ما يلزم المسلمين جميعاً بالعودة إلى عدل القرآن وهم العترة الطاهرة عليهم السلام ، فإنّ أحاديثهم وإرشاداتهم ووصاياهـم وسيرتهم العملية كفيلة بتحديد معالـم متكاملة وشاملة لمنهج أخلاقي يصلح أن يكون مرجعاً لجميع العلماء والباحثين والمتخصّصين بشؤون التربية والتعليم والتبليغ...

والأخلاق ثابتة ومتصلة بالقيم العليا، لأنّها من صنع اللّه. ولا شك أنّ فكرة الالتزام الخلقي هي العنصـر الأساس الذي تدور عليه القيم الأخلاقية، فإذا زالـت فكرة الالتزام يضيع جوهر الحكمة العقلية والعملية التي تهدف الأخلاق إلى تحقيقها، وإذا انعدم الالتزام انعدمت المسؤولية حتماً.

وهـذا الكتاب هو محاولة لتثبيت هذه القيم والمبـادئ الأخلاقية في النفوس والمجتمعات، وهي عبـارة عـن مجموعة من الوصايـا الأخلاقية القيّمة التـي وصّى بها إمامنـا الباقر عليه السلام صاحبه جابـر الذي تشـرّف بخدمة إمامنا الباقر عليه السلام ثماني عشرة سنـة، روى عنه خلق كثير من علماء الأمـة والحفـاظ وحملة الحديـث، والثقاة من أصحـاب الأئمة: السجـاد عليه السلام ، والباقر عليه السلام ، والصادق عليه السلام ، والكاظم عليه السلام ، وله منزلة خاصة عند آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فقد ورد المدح في حقّه عنهم عليهم السلام ، حيث روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**رحم الله جابر كان يصدق علينا، ولعن الله المغيـرة، فإنّـه يكذب علينـا**»[1]. وروى الشيخ المفيد في كتابـه الاختصاص بإسناد صحيح إلى

(1) شيخ القميين أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ «الصفار»، بصائر الدرجات، ج 9، ص 459، باب 17.

عبد الله بن الفضل الهاشمي، قال: كنت عند الصادق جعفر بن محمد عليه السلام إذ دخل المفضل بن عمر، فلما بصر به ضحك إليه، ثم قال: إلي يا مفضل - إلى أن قال: - فقال: يا بن رسول الله، فما منزلة جابر بن يزيد منكم؟ فقال عليه السلام: «**منزلة سلمان من رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

(1) الشيخ المفيد أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري، الاختصاص، ص 216، تحقيق علي أكبر الغفاري نشر دار المفيد للطباعة والنشر - لبنان، ط2، 1993م.

المبصرون، لا يظلمون

نـــص الــوصـــيّــة

عــن الإمــام الباقــر عليه السلام في وصيته لتلميـذه وصاحبه جابر قال: «إِنْ ظُلِمْتَ فَلا تَظْلِمْ»[1].

المــــحــــــاور:

- **المقدمة.**
- **معنى الظلم، ومفهومه.**
- **أنواع الظلم:**
  - أ – ظلم العبد لربّه
  - ب– ظلم العبد لغيره
  - ج– ظلم الإنسان نفسه
- **عافية الظلم.**

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

مقدّمة

لمَّا كانَ الظُّلمُ والعُدوانُ مُنافِيَين للعدْلِ والحقِّ الذي اتَّصفَ به الملكُ الديَّانُ، ومنافيَين للميزان؛ الذي قامتْ به الأرضُ والسماواتُ، وحُكمَ به قسطاً وعدلاً بيْنَ جميعِ المَخلوقات، كانَ الظُّلمُ والعُدوانُ عنــدَ اللّه تعالَــى منْ أكبرِ الكبائرِ والمُوبقــات، وكانتْ درَجتُهُ في الجُرْمِ والإثــم بحسب مفسدته في الأفــراد والأمــم. ولأنّ الرسالات الإلهية ترى في العدل أسمَى غايــة، وأشرف وَسيلة، وأعظم طُلبة، وخيــر مَــا حُفظَتْ به المكانَةُ، ونيْلتْ بــه العزةُ والكرامةُ، وبَقيتْ به الديــارُ ودامَ الأمانُ والاستقرارُ، وتريــد لــه (العدل) أن يشمل كل ميادیــن الحياة تحقيقاً للسعادة في الداريــن، لذلك أخبر الأنبياء صلوات اللّه عليهم عن اللّه تعالَى أنه جعلَ الظلم بينَ عباده مُحرَّماً.

ولقد شخّص حفيد سيد المرسلين مولانا الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام الأمراض الأخلاقيــة والاجتماعية التــي يُبتلى الناس بها، فوضع لها العلاج الــلازم والدواء الحاسم، فأوصى تلميــذه النجيب جابر بــن يزيد الجعفي بوصايا خالدة وشاملة لجميع القيــم الكريمة، والمثل العليا التــي يسمو بها الإنسان إلى أعلــى المراتب الإنسانية فيما لو طبّقها على واقع حياته، فتعالوا نقتبس مــن هــذه الوصايا قبسات لعلّ اللّه ينوّر بهــا قلوبنا، ويُبصرّنا حقائق أنفسنــا، ويهدينا إلى صراطه القويم ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

فلنبدأ أوّلاً بتوضيح الجملة الأولى عبر طرح السؤال التالي: **ما هو تعريف الظلم، وما مفهومه ؟**

وحيث إنّ البحث الأدبيّ واللغويّ قد يكون مملاً، فسنشير إليه إشارة نافعة ومقتضبة.

تعريف الظلم

قــال ابــن فارس: «الظاء والــلام والميم أصــلان صحيحــان، أحدهما: خلاف الضيــاء والنور، والآخر: وضع الشيء غير موضعه تعدّياً»[2].

وقال الجوهري: «ظلمه يظلمه ظلم ومظلمة، وأصله وضع الشيء في غير موضعه»[3].

---

(1) سورة التوبة، الآية 51.

(2) أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة ج 3، ص 468، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبع ونشر مكتبة الإعلام الإسلامي، 1404هـ.

(3) إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، ج 6، ص 255، أحمد عبد الغفور العطار، نشر دار العلم للملايين - لبنان، ط 4، 1987م.

وفي المثل «من استرعى الذئب فقد ظلم» ولأجل ذلك يُعد العدول عن الطريق ظلماً، يقال: «لزموا الطريق فلم يظلموه» أي لم يعدلوا عنه[1].

الظلم في الاصطلاح

الظلم هو: التصرّف في حقّ الغير بغير حقّ، أو مجاوزة الحق. وقيل: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتصرّف في حقّ الغير، ومجاوزة حدّ الشارع.

مفهوم الظلم

يُعد الظلم إحدى طبائع النفس البشرية، ومن السجايا الراسخة في أغلب النفوس، تُظهره القوة ويُخفيه الضعف، وقد عانت منه البشرية في تاريخها المديد ألوان المآسي والأهوال، ممّا جهّم الحياة، ووسمها بطابع كئيب رهيب، والإنسان خُلق ظلوماً جهولاً، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يُعلّمه الله ما ينفعه ويُلهمه رشدَه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[2]، فمن أراد الله به خيراً علّمه ما ينفعه فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علّمه فخرج به عن الظلم، فأصل كلّ خير هو العلم والعدل، وأصل كل شرّ هو الجهل والظلم. وقد جعل الله سبحانه للعدل المأمور به حدًّا، فمن تجاوزه كان ظالماً معتدياً، وله من الذمّ والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه، لأنّ الظلم أيّها الأحبّة جماع الآثام ومنبع الشرور، وداعية الفساد والدمار وهو الذي يحمل الإنسان على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدّة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزّة، ويتكبّر في موضع التواضع.

أنواع الظلم

الظلم كلمة عامة يحملها الناس على محمل ونوع واحد، لكن المتدبّر منهم يعلم أنّ الظلم ثلاثة أنواع، وهو بحسب من يقع عليه:

1. ظلم العبد لربّه:

بأن يُشرك به، فيجعل العبد لله نداً وهو خلقه، قال عزّ وجلّ حكاية عن لقمان عليه السلام، وهو يعظ ابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

---

(1) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج 12، ص 373، نشر أدب الحوزة، 1405هـ.

(2) سورة الأحزاب، الآية 72.

(3) سورة لقمان، الآية 13.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «حقّ الله الأكبر علينا أن نعبده لا نشرك به شيئاً»[1]، «فإن نحن لم نراع هذا الحقّ واخترنا غيره معبوداً كالهوى مثلاً وفقاً لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2]، فإنّ اختيارنا هذا هو بمثابة التجاوز على حقّ الله تعالى والظلم له، وهو ظلم عظيم للغاية؛ ذلك أنّه كلّما كان الطرف المقابل أعظم شأناً وحقّه أكبر فإنّ الظلم الناجم من عدم مراعاتنا لحقّه يكون أعظم وأخطر. ومن هنا نستنتج أنّ للظلم مراتبَ مختلفةً. فهل يوجد من هو أعظم من الله جلّ شأنه يا ترى؟ وهل من حقّ هو أكبر من حقّ الله ؟»[3].

ومن الثابت أن عظمة كل عمل بعظمة أثره، وعظمة المعصية بعظمة المعصي، فإنّ مؤاخذة العظيم عظيمة، فمن أشرك بالله أو عدل به غيره أو اتخذ له سبحانه نداً، فقد ارتكب الظلم الأعظم، وخلع ربقة الإسلام من عنقه، و ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[4].

ويفهم ممّا تقدّم أنّ الذي عناه وقصده الإمام الباقر عليه السلام في وصيّته الخاصّة لتلميذه لجابر ليس هو الظلم بهذا المعنى، وهو عليه السلام لم يقصد بوصيّته القول: «يا جابر! لا تظلم»، أي: لا تشرك بالله، فكلّ مؤمن يفهم بأنّه لا ينبغي له أن يرتكب هذا النوع من الظلم، وإلا لما كان مؤمناً، بل لقد أراد عليه السلام بنصيحته لجابر معنىً آخر ونوعاً آخر غير هذا النوع من أنواع الظلم»[5].

2. ظلم الإنسان نفسه:

الذي يفهم من لفظ الظلم وجود ظالم صدر منه الظلم، ومظلوم وقع عليه الظلم فمن هو الظالم، ومن هو المظلوم ؟ إنه هذا الإنسان المسكين، هو الظالم والمظلوم ؛ ظلم نفسه وأوبقها، وظلم عباد الله عزّ وجلّ، فأساء إليهم، وأساء إلى نفسه وظلمها بما يُعرّضها من العقوبات في الدنيا والآخرة، وذلك بقطع صلتها مع الله تعالى، وبإهمال توجيهها إلى طاعة الله، وتقويمها بالخلق الكريم، والسلوك الرضي، ممّا يزجّها في متاهات الغواية والضلال، فتبوء آنذاك بالخيبة والخسران كما عبّر الله تعالى في الفرقان: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[6]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[7]،

---

(1) الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، رسالة الحقوق.

(2) سورة الفرقان، الآية 43.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي، قم المقدّسة، بتاريخ 3، آب، 2011 م.

(4) سورة الحج، الآية 11.

(5) بتصرّف، من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي، في قم، بتاريخ 3، آب، 2011 م.

(6) سورة الشمس، الآيات 7-10.

(7) سورة البقرة، الآية 57.

وقال سبحانـه: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

وظلـم العبد لنفسه يكون فيما بينه وبين ربّه، ويتحقّق ذلـك عندما يقطع العبد الصلة النورانية بينه وبين نور السموات والأرض الذي مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. والظلم خلاف الضياء والنور، ويتحقّـق ذلـك من خلال تقصير العبد الظالـم لنفسه في المسارعة لتنفيـذ أوامر الله تعالى، وفي الجرأة على إتيان نواهيه.

أعلم أخي المسلم: أنك إذا تعدّيت حدود الله ببصرك، فنظرت به إلى الحرام، فقد عملت سوءً وظلمـت نفسـك، وإذا تعدّيت حدود الله بأذنـك فسمعت بها الحرام من الغنـاء أو الكذب أو الغيبة أو النميمـة، فقـد عملـت سوءً وظلمـت نفسك، وإذا تكلّمـت بلسانك كلاماً يسخـط الله فقد عملت سـوءً وظلمت نفسك، وإذا بطشت بيـدك أو مددتها على ما لا يحل، فقد عملت سوءً وظلمت نفسك، وعندمـا تسمع الأذان وتنـام، ولا تقوم لتصلّي، فقد عملت سوءً وظلمـت نفسك؛ لأنّ الله دعاك إلى إنقاذ نفسك فظلمتها.

الذي يهجر القرآن، ولا يقرأه ظالم لنفسه، لأنّه فوّت على نفسه من الحسنات ما لا يعلمها إلا الله تعالى الذي لا يذكر الله، ولا يدعوه، ولا يهتم بأمر المسلمين ولا يهتم بهذا الدين ظالم لنفسه الخ.

قال مولانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألّا وإنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلـم مغفـور لا يُطلـب، أمّا الظلم الذي لا يُغفر، فالشرك بالله. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[3]، وأمّـا الظلـم الـذي يُغفر، فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأمّا الظلم الذي لا يُتـرك فظلـم العبـاد بعضهم بعضاً القصاص هناك شديد، ليس هـو جرحاً بالمدى ولا ضرباً بالسياط، ولكنّه ما يستصغر ذلك معه..**»[4].

3. ظلم العبد لغيره:

أي الظلـم الذي بينه وبين النـاس، وإياه قصد الله تعالـى بقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا

(1) سورة الأعراف، الآية 177.

(2) سورة يونس، الآية 44.

(3) سورة النساء، الآية 48.

(4) أبن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة، ج 10، ص 34، طبعة 1 ـ دار الكتب العلمية.

ﭐلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1]، وهـو ظلم لا يمكن الخروج منه، والتخلّص من شؤمه وإثمه بمجرّد الإقلاع والندم، بل يكون الخلاص منه بردّ المظالم إلى أهلها، أو استباحتهم منها، وإلا كان القصاص يوم القيامة بالحسنات والسيئات، وليس بالدينار والدرهـم، وكفى بهذا حاجـزاً عن الظلم، وكفى به رادعاً وواعظاً للعبـد المسلم في أن يتخفّف من حقـوق العبـاد، ويخرج من هذه الدنيا سالماً لا يطلبه أحد من العباد بمظلمة في دين أو نفس أو مال أو عرض، فقد روى أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أما إنّه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم. أما إنّ المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر ممّا يأخذ الظالم من مال المظلوم، ثم قال: من يفعل الشر بالناس، فلا ينكر الشر إذا فُعل به..**»[2].

وكي لا يمتطي الظالم سفينة الغفلة، فيرد موارد الهلاك، بجرأته على حقوق الآخرين بادر رحمة الله المهـداة للعالميـن بإغلاق كل المنافذ على الظلم والظالميـن، وذلك من خلال فصل خطابه، وعظيم جوابه فروى عنه حفيده الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا أنبّئكم بالمؤمـن ؟ المؤمن من ائتمنـه المؤمنون على أموالهم وأمورهم، والمسلم من سلم المسلمـون مـن لسانـه ويـده، والمهاجـر من هجـر السيئات فترك مـا حـرّم الله**»[3]، وقال حفيده العظيـم الإمـام أبو عبـد الله الصادق عليه السلام: «**المسلـم أخو المسلم هـو عينه ومرآتـه ودليله لا يخونه ولا يخدعه، ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه**[4].

بعض أنواع ظلم الغير

ومن الملاحظ أنَّ ظلم الغير له صور معدودة وكثيرة لا تنحصر بما ذكرناه منها على سبيل المثال:

1- **ظلم باللسان:** كالسبّ والشتم، والغيبة والنميمة، والبهتان والسخرية، والقذف وشهادة الزور..

2- **ظلم بالفعل:** كالقتل والضرب وأكل الربا والزنا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين والأرحام، والتجسُّـس وتتبـع العـورات، والمماطلة فـي المعامـلات، والغصب والسرقـة، والاختلاس، وتطفيـف المكيال والميزان، والعسـف والتغرير بالعامل، وخيانة الودائـع والأجير، كل ذلك

---

(1) سورة الشورى، الآيات 40 – 42.

(2) الشيـخُ مُحمّـدُ بـن الحسن الحُر العاملي، وسائل الشيعـة، ج 16، ص49، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيـت عليهم السلام، ط2، مطبعة – مهر – إيران، 1414هـ، باب تحريم الظلم، ح9.

(3) العلامـة المجلسـي، بحار الأنوار، ، تحقيق علي أكبـر الغفاري، نشر مؤسسة الوفاء – لبنان، ط2، 1983م، باب وصايا الإمام الباقر عليه السلام ج 64، ص 302.

(4) الحُرّ العاملِيّ، وسائل الشيعة، ج 12، ص181 ـ 205.

وأمثاله من المعامـلات والتعاملات والعلاقات، التفريط فيها والخيانة لها والغش فيها ظلم مقـت الله أهلـه وأحاطت بالديار عواقبـه، و﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وقـد ورد ذكر الظلم بصورتيـه، وفـي قول النبـي الأكرم صلى الله عليه وآله «سباب المسلم فسـوق وقتاله كفـر»[2]، فتأمّل لترى أنّ السبـاب صـورة من صـور الظلم الذي يكون باللسـان، وأما القتل، فصـورة أخرى للظلم ويكـون فعلاً وهـو أشدّ صور ظلم المخلوقين: قـال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[3]، وقـال مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزال المؤمن في فسحة مِن دينه ما لم يُصب دماً حراماً»[4].

عاقبة الظلم

إنّ المتتبّـع يعلـم أنّ هـذه الأمور لا تكاد تخرج مظالـم العباد عنها،، ومردّها كلهـا للنوع الثالث مـن أنواع الظلم القبيـح والفسق الصريح، الذي يربأ عنه عدول المؤمنيـن، وقد حذّر الله سبحانه وتعالـى منهـا أشد التحذيـر فقال في محكـم كتابـه: ﴿.. إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6] وقـال عـزّ من قائـل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[7] وقـال تبـارك وتعالـى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[8]، وقـال عـزّ وجـلّ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[9] إلـى الكثير الكثير من الآيات القرآنيـة الكريمة التي توعّد الله بها الظالميـن بطردهم من ساحـة رحمته، وإحباط أعمالهـم، وبالعقاب العظيم فـي الدنيا، والعذاب الشديـد في الآخرة، وقد بين النبي الأكـرم والأئمة الطاهرين من أهل بيته عليهم السلام أن لأنواع الظلم في دار الدنيا آثاراً مشينة، وعواقب وخيمة، ونتائج مدمرة للفرد والمجتمع مضافاً للخزي والندامة فـي الـدار الآخرة، وبيان ذلـك فيما رواه الإمـام أبو عبـد الله الصادق عليه السلام .. قـال: قال رسول

---

(1) سورة هود، الآية 44.
(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 257 ـ 281.
(3) سورة النساء، الآية 93.
(4) الحُرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج 29، ص 1 ـ 24.
(5) سورة الأنعام، الآية 135.
(6) سورة القصص، الآية 50.
(7) سورة إبراهيم، الآية 42.
(8) سورة غافر، الآية 18.
(9) سورة الشعراء، الآية 227.

الله ﷺ: «**اتقوا الظلم، فإنّه ظلمات يوم القيامة**»[1]. وأقسم مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «**والله لأن أبيت على حسك السّعدان مسهّداً، وأجرّ في الأغلال مصفّداً، أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثّرى حلولها**»[2]، وقال عليه السلام: «**من خاف القصاص كفّ عن ظلم الناس**»[3]، وقال أبو بصير: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**من أكل من مال أخيه ظلماً، ولم يردّه إليه أكل جذوة من النار يوم القيامة**»[4].

ولما سُئِل مولانا الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[5] قال: «**قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة**»[6]. وجاء شيخ من النخع فقال لأبي جعفر الباقر عليه السلام: إنّي لم أزل والياً منذ زمن الحجّاج إلى يومي هذا فهل لي من توبة؟ قال: فسكت ثم أعدت عليه. فقال: «**لا حتى تؤدّي إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه**»[7]. وقال مولانا الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام: «**الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأمّا الظلم الذي لا يغفره، فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره، فظلم الرجل نفسه، فيما بينه وبين الله، وأمّا الظلم الذي لا يدعه، فالمداينة بين العباد**»[8].

---

(1) الحُرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج 16، ص 42 ـ 61.
(2) أبن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة، ج 11، ص 245.
(3) الحُرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج 16، ص 42 ـ 61.
(4) م.ن.
(5) سورة الفجر، الآية 14.
(6) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج16، ص48.
(7) م.ن.
(8) م.ن.

للمظلوم ناصرون

نـص الـوصـيّـة

عـن الإمـام الباقـر عليه السلام في وصيته لتلميـذه وصاحبه جابر قال: «إِنْ ظُلِمْتَ فَلا تَظْلِمْ»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

المـحـاور:

- المقدّمة.
- من عواقب الظلم.
- من إرشادات المعصومين عليهم السلام.
- وجوب نصرة المظلوم.
- تحريم مساعدة الظالم.

مقدّمة

مـن سنـن الله تعالى أن لا يهلك الأمم بظلمهـا إذا قام فيها عباد مصلحـون يأخذون على يدي الظالـم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1]، والآيـة من سورة هود، وهـي من السور التي تتحدّث عن مصارع الظالمين، ونهاية المجرمين والمفسدين في الأرض. «وبملاحظة التفاوت بين كلمتي «مصلح» و«صالح» تتجلّى هـذه المسألـة الدقيقة، وهـي أنّ الصلاح وحده لا يضمنُ البقاء، بـل إذا كان المجتمع فاسداً ولكن أفراده يسيرون باتجاه إصلاح الأمور فالمجتمع يكون له حق البقاء والحياة أيضاً، فلو انعدم الصالح والمصلح في المجتمع فإنّ من سنّة الخلقِ أن يُحرم ذلك المجتمع حق الحياة ويهلك عاجلاً، وبتعبير آخـر: متـى كان المجتمع ظالماً ولكنّه مقبل على إصلاح نفسه، فهـذا المجتمع يبقى، ولكن إذا كان المجتمع ظالماً ولم يُقبل على نفسه، فيصلحها أو يطهرها، فإنّ مصيره إلى الفناء والهلاك»[2].

من عواقب الظلم

ذكـر الله تعالـى قصص الأمـم السابقـة الظالمة، ومـا حلّ بها مـن عقوبات حيـث كان يطغى فيهـا الظالمون ويعبـث فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم وينصـر المظلوم على الظالم فيصلـح ما أفسدوا، فحقّت سنّة الله على تلـك الأمم، إمّا بهلاك الاستئصال، وإمّا بهلاك الانحلال والاختـلال، فقـال سبحانـه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[3]، ولقـد حفل القرآن الكريم بالأخبار الكثيرة عن مصارع الظالمين ومصير المفسدين، ومنهم الذين عمَّرُوا عمرانًا عظيماً، وشيَّدُوا حضارات عتيدة، وظنّوا أنهم بلغوا الغاية في القوة والعزّة فغرّتهم أنفسهم، وأصرّوا على ظلمهم وفسادهم رغم الآيات والنـذر، فحقّـت عليهم كلمـة العذاب، وأصبحوا أثراً بعـد عين وخبراً لا يُتْلَـى إلا للتذكرة والاعتبار: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4]، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا

(1) سورة هود، الآية 117.

(2) آية الله العظمى الشيخ مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج 7، ص 97.

(3) سورة الأنفال، الآية 54.

(4) سورة النمل، الآية 52.

عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾[1]، ولقـد كانوا كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**أطول منكم أعماراً، وأبين آثاراً، وأعد منكم عديداً، وأكثف منكم جنوداً، وأشدّ منكم عنوداً**»[2].

إنَّ مَـا حلَّ بالأُمَم السَّالفة؛ ومَا نَزَلَ بالقُرون الهالكة: قريـبٌ ممَّنْ شاكَلَ أوصافَهُمْ؛ ومُوشكٌ أنْ يَحلَّ بمَنْ حَاكى أعرافهُمْ، كمَا قالَ الله تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[3]، فالظلـم لـه نهايـة والمكر السيـئ يحيق بأهله، وما بين كبرياء زعمـاء قريش ومقولتهم: لا بد أن نرد بدراً ونشرب الخمور وتعزف علينا القيان وتعلم العرب أنّا نحن الناس، وبين صرعاهم المرميين في قليب بدر عبرةً لمن اعتبر.

الظلم نار فلا تحقر صغيرته
لعل جذوة نار أحرقت بلدا

الظلم علّة الهلاك والسقوط

الظلم ليس سببًا من أسباب الهزيمة، فحسب بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول، وتغيّـر الأحوال، ويكفـي في بيان سوء عاقبة الظلم قول الله عـزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[4]، وللعلـم والبيـان: إنّ عذاب الله ليس بمقتصر على من تقـدّم من الأمم الظالمة، بل إنّ سنّته تعالى في أخذ كل الظالميـن سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحـد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[5].

إيّاك وظلم من لا يجد ناصراً

لقد نبّهنا مولانا الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام قائلاً: لمّا حضر علي بن الحسين عليه السلام الوفاة ضمنّـي إلـى صدره، ثم قال: «**يا بنـي أوصيك بمـا أوصاني به أبـي حين حضرته الوفـاة، قال: يا**

(1) سورة النجم، الآية 31.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 70، ص 97.
(3) سورة هود، الآيتان 82 و 83.
(4) سورة يونس، الآية 54.
(5) سورة فاطر، الآيتان 43 و 44.

بنـي، إيـاك وظلـم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله»[1]، وهـذه الرواية الجليلة برسم كل مُحبّ لأهل بيـت رسول الله ﷺ، وحبّـذا لو أن كل واحد منّـا يُعطيها قدراً من التأمّل، ويتدبّـر قول الإمام زين العابديـن عليه السلام: «**يـا بني أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة**» يعني أن هذه الوصية كانت في اللحظات الأخيرة من حياة سيد الشهداء مولانا الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام حين دخل على خيمة إمامنا السجّاد أخر مرّة من يوم العاشر من المحرّم، وجراحاته تشخب دماً ليوصيه بوصاياه، ويقول له: بني علي: إيّاك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله، وإن عطش إمامنا الحُسين وجوعـه وغربته، وعناءه والذب عن حرائر بيت الرسالة، ووقوفه وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين، كل هـذا لم يمنع مولانا سيد الشهداء عليه الصلاة والسلام أن يؤدّي هذه الوصية لولده الإمام زين العابدين كي يوصلها إلينا – لماذا؟ باختصار لأنه عليه السلام رحمة الله الواسعة كجدّه رسول الله ﷺ، ويريد منّا أن نبقى في ساحة رحمة الله، لا أن نكون محطّ غضب الله جلّ شأنه، فقد قال والده أمير المؤمنيـن عليه السلام. قال رسـول الله ﷺ: «**يقول الله عزّ وجـلّ: اشتدّ غضبي علـى من ظلم من لا يجد ناصراً غيري»**[2]. وعوائد غضب الله تعالى على الظالم في هذه الدنيا كثيرة جدّاً ومن أخزاها مـا جاء فـي رواية الإمام الصادق عليه السلام حيث قال مبتدئاً: «**من ظلـم سلّط الله عليه من يظلمه. أو علـى عقـب عقبه:، قلت: هـو يظلم، فيُسلّط الله على عقبه أو على عقـب عقبه؟! فقال: إنّ الله عـزّ وجـلّ يقـول: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾**[3]، **ومـن قـرأ كتاب الله تعالى يجد أنّ الله حمد نفسه عند هلاك الظالمين، فقال:** ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[4]. والروايـات الشريفة كثيرة في تحريم الظلم، وفيما تقدّم بيان كافٍ وحافز كبير لفضل القيام بنصرة المظلوم وحمايته من عسف الجائرين حيث إنّ ذلك من أهمّ أسباب دفع البلاء واستجلاب النعماء، والسلامة من العقوبات، والنجاة في الدنيا والآخرة،هذا مع وقعها الجميل، وآثارها الطيبة في حياة الانسان الروحية والمادية.

وجوب نصرة المظلوم

إنّ مـن أوجـب الواجبات على أبناء الأمـة، وخصوصاً أهل العلم منهم سعيهـم لرفع الظلم عن

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 16، ص 42 ـ 61.

(2) م.ن.

(3) سورة النساء، الآية 9.

(4) سورة الأنعام، الآية 45.

المظلومين من البرية، إذ السكوت عن ذلك من المهالك الردية، ولقد كان من دأب خلّص الموالين لأهـل بيت النبوة والرسالة عليهم السلام نصرة المظلوم علـى الظالم حتى في أحلك الظروف ظلمة، ولم يقتصـر دفـاع علمائهم على المظلومين من المسلمين، بل تعدّاه إلـى المناداة برفع الظلم عن أهل الذمّة الذين يعيشون بينهم وفي جوارهم لأنّهم يعتبرون نصرة المظلوم واجباً دينياً وأخلاقياً على كل مـن شهـد الظلم، ويملـك القدرة على رفعه أو الحـد منه، ويعتبرون ذلك مـن أفضل الطاعات، وأعظم القربات إلى الله عزّ وجلّ حيث إنّ الله تعالى أقسم بعزّته على نُصرة المظلوم، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصيّته: «**يا علي أربعة لا يُردّ لهم دعوة إمام عادل، ووالد لولده، والرجل يدعو لأخيـه بظهـر الغيب، والمظلوم يقول الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين**»[1]. انطلاقـاً من ذلـك وتنفيذاً لأمر الذي ما ينطق عـن الهوى صلى الله عليه وآله وسلم حيث روى حفيـده الإمام الصادق جعفر بن محمد عن آبائه الكرام قال: «**أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبع: أمرهم بعيادة المرضى، واتباع الجنائـز، وإبرار القسم، وتسميت العاطس**[2] **ونصر المظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الداعي**»[3]، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يشحـذ همم المسلميـن ويحثّهم على نصرة المظلوم فورد عنه: «**ومن أخذ للمظلوم من الظالم كان معي في الجنة مصاحباً**»[4].

وورد عنـه صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومـن مشـى مـع مظلـوم يعينـه، ثبّت الله قدميـه يـوم تـزلّ الأقـدام**»[5]. فمن مقتضيـات العدل نصرة المظلوم، وتكون النصرة بتقديـم العون له متى احتاج إليه، ودفع الظلم عنه إن كان مظلوماً، وردعه عن الظلم إن كان ظالماً تحقيقًا لقول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقيل: يا رسول الله كيف أنصره ظالماً؟ قال: تردّه عن ظلمه، فذلك نصرك إيّاه**»[6]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**ما من مؤمن يعين مؤمناً مظلوماً إلا كان أفضل من صيام شهر واعتكافه فـي المسجـد الحـرام، وما من مؤمـن ينصر أخاه، وهو يقدر على نصرتـه إلا نصره الله في الدنيا والآخرة، وما من مؤمن يخذل أخاه، وهو يقدر على نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة**»[7].

وفي قول النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى**

---

(1) زين المحدثين الشيخ محمد بن الفتال النيسابوري الشهيد، روضة الواعظين، ج 1، ص 325، منشورات الرضي قم.

(2) التسميت: ذكر الله تعالى على الشيء والدعاء للعاطس يقولون للعاطس يرحمك الله فيقال التشمت ويقال التسميت.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 17.

(4) م.ن، ج 72، ص 359.

(5) العلامة الحلي أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف، الرسالة السعدية، ج 18، ص 10.

(6) الشهيـد الثانـي زين الدين بن علي العاملي قدس سره، مسالك الأفهام، ج 14، صـ159، تحقيق ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية، مطبعة پاسدار اسلام، ط 1، 1419هـ.

(7) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 282 ـ 307.

بعضــه تداعى سائـره بالسهر والحمى»[1]، و«**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا**»[2] بيان لــروح الإســلام، وحقيقته، وهي أحاديث صريحــة في تعظيم حقوق المسلميــن بعضهم على بعض، وتحثّهم على التراحم، والتعاضد في غير إثم ولا مكروه، وحيث إن - كلام الإمام إمام الكلام، وقول المرتضــى مُرتضى - نستشهد بقول ربيب سيّد المرسليــن ﷺ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**أحسن العدل نصرة المظلوم**»[3]، وقال عليه السلام: «**خض الغمرات إلى الحق حيث كان**»[4].

حرمة مساعدة الظالم والركون إليه

إنّ أحــد أهــم العوامل التي تُهيّىء المجتمع الإسلامي للقيــام بنصرة المظلوم هو البعد كل البعد عــن إعانة الظالم وتقديم أي نــوع من أنواع المساعدة له، لماذا؟ لأنّ مساعدة الظالم تجعله يتمادى فــي الطغيان، ويكون أكثر وقاحة في اقتراف المزيد من الظلــم وأعمال الباطل، وكثير من الظلمة لا يباشرون الظلم بأنفسهم بل يجدون أعواناً لهم يعينونهم، ويُسهّلونه عليهم، ولا يعلمون أنَهم في الإثم سواء قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[5].

«ومــن عظــم خطر الظلم وسوء مغبّتــه أن نهى الله تعالى عن معاونــة الظالمين والركون إليهم: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[6].هذا هــو أدب القــرآن الكريم، وهــو أدب آل البيت عليهم السلام، وقد ورد عنهم ما يبلــغ الغاية من التنفير عن الركــون إلى الظالمين، والاتّصال بهــم، ومشاركتهم في أي عمل كان، ومعاونتهم ولو بشقّ تمرة، ولا شك أنّ أعظم ما مُني به الإسلام والمسلمون هو التساهل مع أهل الجور، والتغاضي عن مساوئهم، والتعامل معهم، فضلاً عن ممالأتهم ومناصرتهم وإعانتهم على ظلمهم.... لقد جاهد الأئمة عليهم السلام فــي إبعاد من يتّصل بهم عن التعــاون مع الظالمين، وشدّدوا على أوليائهــم في مسايرة أهل الظلم والجــور وممالأتهــم، ولا يحصى ما ورد عنهم في هذا الباب»[7]. فقد روي عن مولانا رسول الله ﷺ

---

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 282 ـ 307.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 58، 150.

(3) الآمدي التميمي عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد، غرر الحكم و درر الكلم، 2977.

(4) م.ن.

(5) سورة المائدة، الآية 2.

(6) سورة هود، الآية 113.

(7) العلامة الشيخ محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، فصل: عقيدتنا في التعاون مع الظالمين.

أنــه قال: «**من أعان ظالماً سلّطه الله عليه**»[1]، وعنه ﷺ أنّه قال: «**من مشى مع ظالم فقد أجرم، يقول الله:** ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[2] [3]».

ولأنّ فـي نصـرة المظلـوم حتى يأخذ حقّه، والأخـذ على يد الظالم حتى يكـفّ عن تعديه حفظ نظـام المجتمع، وحماية الضعفـاء من تسلّط الأقوياء، سعى أئمة الهـدى عليهم السلام بكل ما أتاهم الله تعالـى لإقامة حكمه في الأرض، وهو الحكم الذي يقتص فيـه للمظلوم من الظالم، ويلقى المحسن والمسـيء كل جـزاءه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً إنّي أريدكم لله، وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيها الناس أعينوني على أنفسكم، وأيم الله - لأنصفنّ المظلوم، ولأقودنّ الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق، وإن كان كارهاً -**»[4].

ومـن أجل إدانـة الباطل، وتأييد الحق، وتربيـة النفوس على مقت الظلـم ورفضه، والبراءة من الظالميـن أوصـى مولانا أمير المؤمنين الإمامين السبطين الحسـن والحسين عليهما السلام قائلاً: «**كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً**»، وأتبعها بقوله عليه السلام: «**أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي ..**»[5]، وخاطـب نوف البكالي واعظاً: «**يا نوف إن سـرك أن تكون معي يوم القيامة، فلا تكن للظالمين معيناً**»[6]، وروى عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتى ينزع من معونته**»[7].

وقـد أمـر عليه السلام صفوان بن مهـران الجمال بأن يخاطـب الإمام الحسيـن عليه السلام في الزيارة الشهيـرة المعروفـة بزيارة عرفـة قائلاً: «... **فلعن الله أمـةً قتلتك، ولعن الله أمـةً ظلمتك ولعن الله أمـةً سمعـت بذلـك فرضـت به..**»[8]، ويرشدنـا مولانا الإمام علي بـن الحسين عليه السلام في دعاء مـكارم الأخـلاق للاعتذار من الله سبحانه إن لم تكن لنا القدرة علـى نصرة المظلوم: «**اللهم إنّي أعتـذر إليـك مـن مظلـوم ظُلـم بحضرتـي، فلم أنصـره**»[9]، وفي دعـاء العهد المروي عـن إمامنا

---

(1) الفقيــه المحـدث قطب الديـن الراوندي قدس سره، الخرائج والجرائح، ج 3، ص 91، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي عجل الله فرجه - قم، المطبعة العلمية - قم، ط 1، 1409هـ.

(2) سورة السجدة، الآية 22.

(3) العلامة المولى محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 377.

(4) أبن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 2459.

(5) م.ن، ج 1، ص 4704.

(6) الشيخ الصدوق، الآمالي، ص210.

(7) م.ن.

(8) شيـخ الطائفـة أبـو جعفر محمد بن الحسـن الطوسي، تهذيب الأحكام في شـرح المقنعة، زيارة الأربعين، تحقيـق وتعليق السيد حسن الموسوي الخرسان، نشر دار الكتب الإسلامية - طهران، مطبعة خورشيد، ط 4، 1365هـ.

(9) الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية، دعاؤه في الاعتذار من تبعات العباد.

الصـــادق عليه السلام والذي يقول في فضله مــن دعا إلى الله أربعين صباحاً بهذا العهد كان من أنصار قائمنا.. «**اللهم واجعله مفزعاً للمظلوم من عبادك، وناصراً لمن لا يجد ناصراً غيرك،..**»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 91، ص 42.

لا يخونون

نـص الـوصـيّـة

روي عـن الإمـام الباقر عليه السلام في وصية لتلميذه وصاحبه جابر قال: «وَإِنْ خَانُوكَ فَلا تَخُنْ»[1].

المـحـاور:

- مقدّمة.
- تعريف الخيانة لغة.
- تعريف الخيانة اصطلاحاً.
- أصناف الخيانة.
- من الآثار السيئة للخيانة.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

مقدّمة

الوصيــة الأخرى التي يوصي بها الإمام الباقر عليه السلام جابر هي: «**وَإِنْ خَانُوكَ فَلا تَخُنْ**»[1]؛ أي: إذا خانــك النـاس فلا تُبادرهم بالخيانة. والخيانة بالطبع هــي إحدى مصاديق الظلم، لكنّ ذكرها بالخصوص هو من باب الاهتمام ببعض مصاديق الظلم التي قد لا تتبادر إلى الذهن.

والخيانــة هــي ذلك الفكر المظلم والسلـوك الشاذ الناشئ عن الجهل والظلـم والذي يؤدّي إلى تــرك ما يجب حفظه ورعايته من حقوق والتعدّي عليها والتفريط فيها، و«**الخيانة**» آفة دنيئة تأباها النفوس الشريفة، وترفضها العقول السوية، وتمجّها الطباع الكريمة بغضّ النظر عن دين أو مذهب أو قومية أو عرق أصحاب تلك الطباع.

تعريف الخيانة لغةً

إنّ الجذر اللغوي لها هو مادة «خان» بمعنى انتقص، يخون خوناً وخيانة وخانة ومخانة، فالخاء والواو والنون أصل واحد معناه التنقص والضعف، يقال: في ظهره خون أي ضعف، والخون أن يؤتمن المرء فلا ينصح، والخيانة التفريط في الأمانة، وخانه إذا لم يف له، وخان السيف إذا نبا عن الضربة، وخانه الدهر إذا تغيّر حاله إلى الشر، وناقض العهد خائن لأنّه كان يُنتظر منه الوفاء فغدر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

واختانــه فهــو خائــن وخؤون وخــوَّان وخائنــة، ومنه قولــه تعالــى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾[3].

أي: مــا يســارق المرء من النظر نظر ريبة إلــى ما لا يحل له، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»[4].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

(2) سورة الأنفال، الآية 71.

(3) سورة غافر، الآية 19.

(4) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج 3، ص 47، أشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، من طبعة دار الكتب العلمية.

تعريف الخيانة اصطلاحاً

لمّـا نزل القرآن الكريم نقل اللفظ «**الخيانـة**» إلى معناها المصطلحي المتضمّن للغدر والكذب وتزييـف الحق وتزويـر الوقائع والتجسّـس وكشف عـورات المسلمين والمجتمـع الإسلامي بالقول والعمل والإشارة والعبارة، هذا المعنى الذي يُحدّد معالم شخصية مريضة حاقدة مضطربة، دنيئة لئيمة، تُطْرَدُ من الصف المسلم إن تعذّر تقويمها وإصلاحها.

لقد شمل لفظ «**الخيانة**» بذلك معاني واضحة تُحدّد معالم الأشرار، لا تركن إليها نفوس الأحرار، ولا ترتضـع ألبانها أفـواه الأبرار، معاني تركس منظومة الأخلاق في مستنقـع الرذيلة والفساد ركساً، وتحطّـم كل مفاهيـم العبـادات والمعاملات من بـاب الطهارة إلى بـاب الديات مـروراً بنظم الحكم والاقتصاد والاجتماع والسياسات: فمن لم يُهذّب نفسه ولم ينتفع بعقله، فقد خان نفسه، ومن استسلم لحلاوة المال أو الجاه أو القوة، فقد خان نفسه، ومن عشي بصره عن عيوبه، ومَرِضَ قلبه باتباع الهوى، فقد خان نفسه، ومن غرّته المطامع وأعمته الأماني، فقد خان نفسه، ومن غُلَّ عقله بالغضب والشهوة، فقـد خان نفســه، ومن مدحك بما ليس فيك فقد خانك، ومن ستر عنـك الرشد اتباعاً لما تهوى، فقد خانك، ومن ساترك عيبك فقد خانك، ومن كان معك في أمر جامع واستبدّ برأيه عليك، فقد خانك...

وعندمـا يتعرّض المرء لخيانة فإنّه يتولّد في داخله دافع لتخطّي حـدود الحقّ. إذن فإنّ عبارة: «**وَإِنْ خَانُوكَ فَلا تَخُنْ**» تُمثّل هي الأخرى إنذاراً للإنسان بأن لا يتعدّى على حدود الحقّ في مثل هذه المواقـف. في حين أنّه ليس ثمّة ما يوجب الالتزام والتمسّك بذلك العقد الذي أُلغي بخيانة الطرف المقابل. بالطبع قد يبقى الإنسان ملتزماً بعهده حتّى في مثل هذه المواطن رعايةً منه لأمر أخلاقيّ أو تربويّ وهو أن يلقّن الطرف المقابل درساً وينبّهه لخطئه، كما مرّ بيانه في مسألة العفو والصفح، فإن طُرحت أمثال هذه الأمور فستشكّل موارد استثنائيّة قد تكون مطلوبة بعناوين أخرى»[1].

أصناف الخيانة

إنّ أعمـال الخيانة متعدّدة ومتنوّعة، ولكن لها باعتبار من وجّهت ضدّه أربعة أصناف حدّدتها آيتان كريمتان هما قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[2].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴾[3].

1 ـ خيانة لله عز وجل.

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها في مكتب سماحة الإمام الخامنئي، في قم بتاريخ 4 / آب / 2011م.

(2) سورة الأنفال، الآية 27.

(3) سورة النساء، الآية 107.

2ـ خيانة لرسوله ﷺ.

3ـ خيانة للأمانة.

4ـ خيانة للنفس.

والخيانة في هذه الأصناف الأربعة خيانة واحدة، لأنها كالأواني المستطرقة، يصبّ بعضها في بعض، إذ خيانة النفس خيانة لله وللرسول وللأمانة، وكذلك خيانة الله وخيانة الرسول وخيانة الأمانة، فإنّ ورودها مفصّلة في القرآن الكريم ومبينة في السنة النبوية وأحاديث أئمة الهدى عليهم السلام يراد به زيادة التوضيح، والتحذير والتنبيه، والحثّ على اجتنابها والبعد عن أهلها.

1. خيانة المرء لله تعالى:

تتمثّل أول ما تتمثّل في الكفر والشرك كونهما رأس الموبقات، لأنّ حق الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيئاً، فإن أنت لم تؤدِّ هذا الحق، واخترت غيره معبوداً كالهوى مثلاً وفقاً لقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[1]، فإنّ اختيارك هذا هو بمثابة الخيانة العظمى؛ ذلك أنّه كلّما كان الطرف المقابل أعظم شأناً وحقّه أكبر فإنّ الخيانة الناجمة من عدم مراعاتنا لحقّه تكون أعظم وأخطر، وتتمثّل خيانة المرء لله تعالى أيضاً بمرضى القلوب داخل الصف المسلم ويُجسّدها النفاقان العقدي والعملي بوضوح، وذلك من خلال إظهار الإيمان والعمل الصالح وإسرار الشرك والرياء، وعدم الوفاء بعهد الله.

2. خيانة المرء للرسول ﷺ:

كان يقوم بها الذين كانوا يظهرون لرسول الله من الحق ما يرضى به منهم، ثم يخالفون في السر إلى غيره، وإنّ الله تعالى قد كفاه مكر الخائنين وغدرهم، فقال: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2]، وأرشده عزّ وجلّ إلى خير أسلوب للتعامل مع الخونة بعد أن شبّههم بشرّ الدواب بقوله في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[3]، فإنه ﷺ تعليماً لنا وإرشاداً وتحذيراً، كان لا يستعين مطلقاً بمن يتوسّم فيهم ملامح الخيانة ؛ هذا في حياته ﷺ، وأمّا بعد انتقاله، فتتمثّل الخيانة بالذين لا يمتثلون لأمره ونهيه ولا يقتدون به وبهديه، ولا يتمسّكون بثقليه العظيمين (قرآنه وعترته)، ويُدخلون البدعة في سنّته.

---

(1) سورة الفرقان، الآية 43.

(2) سورة الأنفال، الآية 71.

(3) سورة الأنفال، الآيات 54 – 58.

3. خيانة الأمانة:

«يُستخدم مصطلح الخيانة في الأصل في موارد خيانة الأمانة. فالله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1]، لكنّـه يوجـد من يخون الأمانة على الرغم من هذا الأمر الإلهـيّ؛ أي عوضـاً عن أداء الأمانة إلى أصحابها فهو ينكرهـا أو ينقص منها أو يقصّر في حفظها وصيانتهـا، وهذا من مصاديق الخيانة، فأكثـر الأمثلة شيوعاً للخيانة هي خيانة الأمانة، وبناء عليه يكـون معنى الرواية: إذا خانك الآخرون بعـدم أداء المال أو الحق الذي ائتمنته عندهم أو بتضييعه فـلا تُقابلهم بنفس الأسلـوب، لكن قد يتّسع مفهوم الخيانة ليشمل الخيانـة لكلّ تعهّد والتزام. فقد يتعهّـد شخصـان أو فريقان ببعض الأمور فلا يفي أحد الطرفين بهذا التعهّد ويخون العهد. وهذا لا يُعَدّ اصطلاحاً خيانةً للأمانة، بل هو خيانة للتعهّد المبرَم مع الآخرين[2].

وهذان المفهومان (وهما: أداء الأمانة، والوفاء بالعهد) هما من أكثر القيم التي تشكّل قوام الحياة الاجتماعيّـة عموميّةً. فحتّى لو لم يكن لجماعة من الناس أيّ دين تدين به أو مذهب عقائديّ خاصّ، ولـم يكونوا أصحـاب أيّ مدرسة أخلاقيّة، أو تابعيـن لأيّ حكيم أو شخصيّة عظيمـة لكنّهم يريدون أن يهنئـوا بحيـاة اجتماعيّة مريحة مـع بعضهم، فإنّه يتحتّم عليهم مراعـاة هذين الأمرين. فالذين وقّعـوا صلح الحديبيّة مع النبـيّ الأكرم ﷺ كانوا عبَدة أوثان، لكنّ جلوسهـم مع النبيّ واستعدادهم لأن يوقّعـوا وثيقة صلح معه ﷺ يعني أنّهم يقولون في قرارة أنفسهم: إنّنا ملتزمون بهذا العقد. يقول القـرآن الكريم في هذا المجال: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾[3]، فطالما التزم الذين أبرمتم معهم عهداً بهذا العهد فلا تنكثوه أنتم. فإذا نكثوا هم العهد من جانبهم فمن حقّكم حينئذ أن تنكثوه أنتـم ولا تلتزمـوا به؛ لكن مـا داموا أوفياء به فأنتم أولى منهم بالوفاء بـه، والقيمة التي تقوم الحياة الاجتماعيّـة عليها هي أداء الأمانة. يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**لو أنّ قاتل أبي الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه**»[4]»[5].

قـال أمير المؤمنيـن عليه السلام: أقسم لسمعـت رسول الله ﷺ يقـول لي قبل وفاتـه بساعة مراراً ثلاثاً: «**يا أبا الحسن أدِّ الأمانة إلى البر والفاجر فيما جلّ أو قلّ حتى في الخيط والمخيط**»[6].

---

(1) سورة النساء، الآية 58.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزدي ألقاها بتاريخ 4 آب 2014 في قم المقدسة.

(3) سورة التوبة، الآية 7.

(4) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص246، تحقيق ونشر مؤسسة البعثة - قم، ط1، 1417هـ.

(5) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 4 / آب / 2011م.

(6) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 273.

وروى مولانــا الإمام الصادق عليه السلام عــن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ليس منّا من أخلف بالأمانة**»[1]، وروى مولانــا الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام عــن أبيه عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: «**لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل، انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة**»[2]، وقال أبي كهمس: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: عبد الله بن أبي يعفور يقرؤك السلام، قال: «**وعليك و عليه السلام، إذا أتيت عبد الله فاقرأه السلام، وقل له: إن جعفر بن محمد يقول لك: انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فالزمه، فإنّ علياً عليه السلام إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة**»[3].

وديــــنــــي رعْــــــيُ الــعــهــد والــــــود والــصــفــا
فــمــا لـــي ومُـــخـــتـــار الــخــيــانــة والـــغـــدْر

4. خيانة المرء نفسه:

فإنّ معناها العام المطلق يشمل أمرين اثنين:

أ - **الخيانة الذاتية**: بأن يرتكب المرء من المعاصي والأفعال ما يضرّ به نفسه في الدنيا والآخرة، والخيانــة كما تجري في أفعال الجوارح تجري في أفعال القلوب أيضاً كخيانة الضمير، وتلك لا يشعر بها غير الله. وأعلم أخي المسلم أنّ كل عضو أعانك على الخيانة، فقد خان، فالعين خانــت بنظــر واطلاع، والأذن في إصغــاء واستماع، واللسان في قولٍ واختــراع، والفم بمأكل مضاع، واليد والقدم إذا نقلهما للإثم ساع.

ب- **خيانة المرء أمّته**: باعتبار أنها من نفس واحدة كما قرّر ذلك القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[4]، وأن جماعــة المؤمنيــن كالجســد الواحد إذا اشتكى منه عضــو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وتكــون خيانتهم بانتقاص حقوقهم المعنوية بالامتنــاع عــن الدفاع عنهــم أو عن بذل النصيحة لهــم أمراً بمعروف أو نهيــاً عن منكر، أو بخذلانهــم في ساعات الضيق والعســرة، أو التجسّس عليهم وكشــف عوراتهم لأعدائهم، أو

---

(1) الشيخُ مُحمّدُ بن الحسن الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج 19، ص 57 ـ 78.

(2) م.ن.

(3) م.ن.

(4) سورة النساء، الآية 1.

بانتقاص حقوقهم الماديـة كأكل أموالهم بالباطل، أو انتهـاك أعراضهم أو سفك دمائهم؛ وغشّهم والمكر بهم وخديعتهم، فكل ذلك خيانة لأنّ فيها انتقاصاً لحقوق المسلمين وإضراراً بهـم وغـدراً لهـم، ومن مظاهر خيانـة الأمة فـي زماننا هـذا أن يُحمى الوطيس، وتُنصب المنجنيقـات، ويتقاذف الناس بالكلمات التي هي أشـد من الحجارة، وأنكى من السهام من أجل مسائل تحتمل أكثر من وجه وتقبل أكثر من تفسير، فهي من مسائل الاجتهاد، التي دلّت على سعة هذا الدين ومرونته.

من الآثار السيّئة للخيانة

عندما نتتبّع آيات الكتاب العزيز والروايات الشريفة نجد العديد من الآثار للخيانة منها:

1. الخائن منافق:

تتضح لنا المعاني وتستنير المعالم من تتبّعنا لسياق قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾، فقـد تلاهـا مباشرة قوله عزّ وجلّ: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾، ثم تـلاه مباشرة قوله سبحانـه: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾[1]، وبمفهـوم هذه الآيات الكريمة يعد خونة أنفسهم منافقين، نفاقاً عقدياً لأنهم يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، ونفاقاً عملياً لأنّ تصرّفاتهم تناقض تعاليم الإسلام وإن تظاهروا بالإيمان.

2. عدم محبّة الله للخائن:

وهم بذلك محطّ غضب الله تعالى وبغضه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾، وما أعظمه من ذنـب يجلـب على صاحبه بغض الله لـه، ومن أبغضه الله فقد لعن، ومن الإيمـان أن تُحبّ من يُحبّه الله وتُبغض من يُبغضه الله، قال رسول الله ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله والبغض في الله**»[2].

3. الخيانة عنوان كل جريمة:

وعندما نتأمّل النصوص القرآنية، والبيانات النبوية يتّضح لنا أنّ الخيانة عنوان كل جريمة مهما دقّـت أو جلّـت، والأمين لا يخون أبداً، لا يخون مسلماً ولا كافراً ولا خائناً، ولقد حذّر سبحانه وتعالى

(1) سورة النساء، الآيات 107 – 109.

(2) الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج 16، ص 164ـ 185.

رسولـه الكريم من أهل الخيانـة تحذيراً صريحاً لا لبس فيه فقـال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾[1].

وقـال النبـي الأكرم ﷺ: «**كل الخلال يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب**»[2]، وروى الحسن بن محبوب قال: قلت لأبي عبد الله [الإمام الصادق] عليه السلام: «**يكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم، قال: قلت: فيكون جباناً؟ قال: نعم، قلت: فيكون كذّاباً؟ قال: لا، ولا جافياً، ثم قال: يُجبل المؤمن على كل طبيعة إلا الخيانة والكذب**»[3].

4. الخيانة من الكبائر:

إنّ المتتبّـع بدقّة يعلم بأنّ الخيانة تفوق بخطورتها جلّ الكبائـر المرتكبة لأنّها تضمّها كلّها ولها تعلّق بالنفاق والغشّ والخداع، وترك النصيحة وارتكاب الفواحش، والنميمة والكفر والشرك، وسفك الـدم الحرام...الـخ، والنفاق خيانة كلّه، وآية المنافق كمـا وردت في حديث مولانا رسول الله ﷺ: «**إذا اؤتمـن خـان وإذا حـدّث كذب، وإذا وعـد أخلف**»[4]، وقال مولانا الإمـام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الخيانـة رأس النفـاق**»، وقال عليه السلام: «**ثـلاث هن شين الديـن الفجور والغـدر والخيانة**»، وقال أيضاً: «**جانبوا الخيانة، فإنّها مجانبة الإسلام**» وقال عليه السلام: «**رأس الكفر الخيانة**»[5].

5. نفي الإسلام عن الخائن:

روى مولانا الإمام علي بن موسى الرضا، عن آبائه الكرام عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان مسلمـاً فـلا يمكـر ولا يخدع، فإنّي سمعت جبرئيـل يقول: إنّ المكـر والخديعة في النار. ثم قال: ليس منّا من غشّ مسلماً، وليس منّا مِن خان مؤمناً**»[6].

لَـحـى اللّه الـخـيـانـةَ كَـم تَـعِـيـبُ
وَكَـم تَـعـدو وَتُـخـطـئُ لا تـصـيـبُ

---

(1) سورة النساء، الآية 105.

(2) سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، ج 9، ص 184.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 172.

(4) الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 332 ـ 353.

(5) الميـرزا حسيـن النـوري الطبرسي، مستدرك الوسائـل، ج 14، ص 15، تحقيق ونشـر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحيـاء التراث، ط 2، 1988م، باب تحريم الخيانة، ح 12.

(6) الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 332 ـ 353.

لا يغضبون

نـص الـوصـيّـة

روي عن الإمام الباقر عليه السلام في وصيته لتلميذه وصاحبه جابر قال: «وإن كُذِّبت، فلا تغضب»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

المحاور:

- مقدّمة.
- تكذيب الأولياء سنّة الظالمين.
- بعضاً ممّا لاقاه نبّينا الخاتم.
- من دوافع المكذِّبين.
- عدم الغضب.
- كيف نجتنب الغضب.
- دور الوصية في إيجاد الصبر والثبات.

مقدّمة

مـن الوصايـا التي يوصـي بها إمامنــا أبو جعفر الباقـر عَلَيْهِ السَّلَامُ صاحبه وتلميـذه النجيب جابر الجعفي هي: «**وإن كُذِّبت، فلا تغضب**»[1].

«الوصيّتـان الأولَيـان ترتبطان بالمسائل العمليّة والسلوكيّة أكثر مـن غيرها. لكن قد تقع أحياناً بعضـ الأمور التي تُثير غضب الإنسان وتُمهّد الأرضيّة لارتكابـه المعصية. والمثال على هذه الأمور هـو عندمـا يقول المرء لأحد شيئاً خدمةً له، أو لأجل إصلاحه أو إرشاده لا يحدوه لذلك سوى الخير والحرص علـى مصالح ذلك الشخص، لكنّ ذلك الشخص يردّ طالـب الخير هذا باتّهامه بالكذب قائلاً له: «إنّك تكذب، وتضمر نيّات سيّئة»!

وأوضح مثال على هذا السلوك هو ما صنعه الكفّار مع الأنبياء، فالكلام الذي أتى به أنبياء الله تعالى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ للبشر هو الأكثر صدقاً والأوفر فائدة والأعظم أثراً من بين كلّ ما يمكن أن يُقدّمه بشر لبشر طلباً لنجاته نجاةً أبديّة، لكنّنا نجد أنّ القرآن الكريم يُصرّح بأنّه ما من نبيّ أرسلناه إلاّ وكذّبه قومه، بل واستهزأوا به أيضاً»[2].

تكذيب الأولياء سنّة الظالمين

لقـد تكـرّرت مجموعة من التهم التي رُمي بها أصحاب كل الدعوات الإلهية والإصلاحية على مر الأزمان وكان من أمضاها وأبلغها (الاتهام بالكذب).

تذكـر الكثير من الآيات القرآنية أنّ تكذيب الدُّعاة والمصلحين ممّا دأب عليه الطُّغاة وأعوانهم الملتفّون حولهم والرَّعيَّة الفاسدة المتّبعة لهم، فما من داعية أو مصلح إلا وقد رموه بالكذب، وكان القصد من هذا الاتهام هو تنفير العامة، ووضع الحواجز والعراقيل بينهم وبين الدُّعاة المصلحين، ومـن الآيات الصريحة في ذلك ما يأتي، قـال تعالى: ﴿.. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴾[3]، وقال سبحانـه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 4 / آب / 2011م.

(3) سورة غافر، الآية 24.

يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[1]، ومـن ذلـك قـول الملأ لنبـي الله تعالـى هـود عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[2].

وقالـت الزمـرة الفاسـدة من قـوم نبـي الله صالـح عليه السلام: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾[3]، وقالـت النُّخبـة المستكبرة لشعيـب عليه السلام: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[4]، ولـم يكن الأمـر مختلفاً مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مع أنـه كان مشهوراً لديهم من قبـل بالصـادق الأمين، إلا أنّ أئمـة الكفر من قريش رغم علمهم بذلـك وصفوه بالكذّاب، قال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾[5]، وكما تبين فإنها سنة متبعة عند الظالمين من عهد نـوح عليه السلام وإلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[6].

بعضاً ممّا لاقاه نبيّنا الخاتم

الكذب تهمة تذرّع بها كلّ الطُّغاة والفاسدين في مواجهة دعوة الأنبياء والمرسلين ودعاة الإصلاح ومـا لاقاه مولانـا خاتم النبيين رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى أكثر مـن أن يُحصى وأشهر من أن يُذكـر، ومـا أوذي نبي مثل ما أوذي نبيّنا في الله، ولذلك ساد رُسُلَ الله عليهم السلام. قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[7]، فلمّا بعث الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلـى الناس كافـة ليهديهم به إلى الصـراط المستقيم قابله المشركون بمـا يستطيعونه من الأذى والمنـاوأة، وتأليـب النـاس عليه، وتحذيرهم منـه، فوصفوه بأشنع الأوصاف، فقالـوا: «إنه ساحر»، وقالوا: أخرى «إنه كاهن»، وقالوا: «مجنون».

هـذا وهم أعلم الناس بماضيه المشرق الوضّاء، ولكن الذي حملهم على ذلك (الحسد والكبر)، ودوافـع أخرى، وقـد أخبر الله تعالى عنهـم في كتابه العزيـز أنّهم أقسموا بالله جهـد أيمانهم لئن

(1) سورة القصص، الآية 38.
(2) سورة الأعراف، الآية 66.
(3) سورة القمر، الآية 25.
(4) سورة الشعراء، الآية 186.
(5) سورة ص، الآية 4.
(6) سورة ق، الآيات 12 ـ 14.
(7) سورة فاطر، الآية 4.

جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلمّا جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً واستكباراً في الأرض ومكروا به المكر السيّئ، ولا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله، وقال سبحانه وتعالى مخبراً عنهم: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾[1] إلى أن قال مشيراً إلى حسدهم له ﷺ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3]، ثم قال مخبراً عن اعتراضهم على الله في اختياره لهذا النبي الكريم ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[4]، فأنكر عليهم ذلك، وبين أن الأمر أمره، والخلق خلقه، والفضل فضله يؤتيه من يشاء، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، فقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾[5]، وقال تعالى ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾[6].

وكان كلّما اشتدّ ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه لله تعالى، وداخله الحزن لأذاهم له كانت آيات القرآن تتنزّل على رسول الله تباعاً تسليةً له بعد تسلية، وعزاءً بعد عزاء. قال تعالى ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[7]، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[8] ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[9]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[10]، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[11].

من دوافع المكذّبين

الحسد والكبر، وحبّ الرياسة، والانغماس في الترف، والإسراف في التنعُّم، والفسق...الخ هذه الأوبئة وأوضح مصداق للدلالة على ذلك -الحوار الذي دار بين الأخنس بن شريق وأبو جهل- عندما قال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنّه ليس ههنا من قريش

(1) سورة ص، الآية 4.
(2) سورة ص، الآية 8.
(3) سورة الزخرف، الآية 30.
(4) سورة الزخرف، الآية 31.
(5) سورة الزخرف، الآية 32.
(6) سورة الأحقاف، الآية 9.
(7) سورة يس، الآية 76.
(8) سورة يونس، الآية 65.
(9) سورة المائدة، الآية 67.
(10) سورة المجادلة، الآية 21.
(11) سورة الفتح، الآية 3.

غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: «ويحك والله إنّ محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكـن إذا ذهبـت بنو قصي بالسقايـة والحجابة والنبوة، فمـاذا يكون لسائر قريشـ»[1]، وقال مرة أخرى: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتـى إذا تجاثينا على الركب، وكنّا كفرسي رهان قالوا منّا نبي ينزل عليه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به، ولا نُصدّقه»[2]، وهكذا يبلغ الحسد والتكبّر وحبّ الرياسة بهؤلاء القوم الذيـن دعاهم رسول الله ﷺ إلى ما فيـه سعادتهم في الدنيا والآخـرة، فحملهم ذلك على تكذيبه تجاهـلاً للحقيقـة وإبداء خلاف المستقر في القلوب، يقولـون بأفواههم ما ليس في قلوبهم متبعين فـي ذلـك إمامهم في الضلال والحسد إبليس اللعين حيث فسق عـن أمر ربّه له بالسجود لآدم كبراً وحسـداً استنـاداً منه لعنه الله على أنّه أفضل منه على زعمه، لكونه خُلق من نار وآدم عليه الصلاة والسلام خُلق من طين.

الوصية بعدم الغضب

قالـوا: إنّ الغضـب حالة نفسية، تبعث علـى هياج الإنسان، وثورته قولاً أو عمـلاً، والمتأمّل بدقّة يعلـم أنّ الغضـب أوله (فكـرة سيئة) تحوّلت بسرعـة إلى حالة نفسية. والغضـب خلق من الأخلاق المنافيـة للصبر، وهو مفتـاح من مفاتيح الشرور، وداعية الأزمات والأخطار. لا سيما الغضب الذي يخرج الإنسان عن طوره وسمته، أو الغضب للباطل وللهوى والشهوة ـ هذا الغضب رذيلة من الرذائل الخلقية إذا تحكّم في أفكار ونفوس الناس، واستشرى في مجتمعاتهم كان له أسوأ الأثر في حياتهم، ونتائج بشعة في تمزيق روابط المودّة بينهم، فالإنسان حين يشتدّ غضبه ويزداد غيظه يفقد الرشد والصـواب، ويصبح وحشاً ضاريـاً لا يدري ما يفعل ويظن أنه بذلك يظهـر بمظهر المحترم لنفسه المحافـظ على كرامتـه والواقع أنه يظهر بمظهـر الطائش الأحمق.. إذ يتصـرّف تصرّفات رعناء تُفسـد عليه حياتـه وقد يخسر دنيـاه وآخرته. لذلك كله جعـل الإسلام من صفـات المتقين الذين يستحقّـون رضوان الله عدم الاستسلام للغضب، كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿..وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3]، وقـال مولانـا رسـول الله ﷺ: «.. **وما من جرعـة أحـبّ إلى الله مـن جرعتين جرعة غيظ يردّهـا مؤمن بحلم، وجرعة جـزع يردّها مؤمن**

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 9، ص 86.

(2) محمد بن إسحاق بن يسار، سيرة ابن إسحاق، ج 4، ص 170، تحقيق محمد حميد الله، طبع ونشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

(3) سورة آل عمران، الآية 134.

بصبر..»[1].

قال الحافظ عبد الرزّاق بن همّام الصنعاني: جعلت جارية لعلي بن الحسين عليه السلام تسكب عليه الماء، فتهيّأ للصلاة فسقط الأبريق من يد الجارية على وجهه، فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية إنّ اللّه عزّ وجلّ يقول: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾، فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، فقال لها: عفا اللّه عنك، فقالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال: «**أنت حرّة لوجه اللّه تعالى**»[2]. والغيظ هو أشدّ الغضب، والغضب عدو العقل، وهو له كالذئب للشاة قلَّ ما يتمكّن منه إلا اغتاله، والغضب يُنسي الحرمات، ويدفن الحسنات، ويخلق للبريء جنايات، وقد أحسن وأجاد الشاعر لما قال:

وَعَينُ الرِضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ　　وَلَكِنَّ عَينَ السُخطِ تُبدي المَساوِيا.

وكذلك قيل:

وعين البغض تبرز كل عيب　　وعين الحب لا تجد العيوبا.

كيف نجتنب الغضب

روى مولانا أبو عبد اللّه عليه السلام قال: سمعت أبي يقول: «**أتى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم رجل بدوي، فقال: إني أسكن البادية فعلمني جوامع الكلم، فقال: آمرك أن لا تغضب، فأعاد عليه الأعرابي المسألة ثلاث مرات حتى رجع الرجل إلى نفسه، فقال: لا أسأل عن شيء بعد هذا ما أمرني رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إلا بالخير**»[3].

ومعنى اجتناب الغضب أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، فلا يُقْدِم على قول أو فعل يندم عليه في حال الرضى، بحيث يكون كل سلوكه محكوماً بعقله السليم في حالتي الغضب والرضى، لا بالغرائز الجامحة، وإذا كان سلوك الإنسان محكوماً بوحي من عقله السليم، فإنه يحوز الخير كله، ويبتعد عن الشر كله، لأن العقل السليم ينسجم تماماً مع الدين الإسلامي الذي هو فطرة اللّه التي فطر الناس عليها.

وهكذا جاءت وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك الرجل، ووصية حفيده الباقر عليه السلام في كلمة واحدة «**لا**

---

(1) الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، الأمالي، ج 1، ص 8، الحديث رقم 11.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 2، ص 146، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، نشر دار المفيد للطباعة والنشر – لبنان، ط 2، 1993م.

(3) الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 354ـ 373.

تغضب»، ولكن هذه الكلمة تتضمّن توجيهاً عالياً نحو السلوك الأمثل ، فالإنسان في حال الغضب يتصرّف بدافع من عاطفته بعيداً عن تحكّم العقل الرشيد ، فلا يؤمَن - والحال هذه - عليه أن يتفوّه بكلام سفاهة أو أن يعتدي بجوارحه على من غضب عليه ، فالحلم عند الغضب ضمان لسلوك المسلم في كفّ أذاه بلسانه ويده، وإذا علمنا أن المصطفى ﷺ قد جعل كفّ الأذى رمزًا للمسلم الحقّ، وذلك في قوله الذي رواه عنه حفيده الباقر عليه السلام : «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[1]، فإنّنا نعلم سمو المقاصد التي اشتملت عليه هذه الكلمة «**لا تغضب**».

ويبين لنا رسول الله ﷺ عظمة الإنسان الذي يملك نفسه عند الغضب وذلك من خلال قوله: «**ليس الشديد بالصُّرَعة، إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[2]، فالشديد ليس هو القوي في بدنه الذي يصرع الرجال ، وإن كان هذا يعدُّ في عرف الناس شديدًا ، إنما الشديد حقاً هو الذي يملك نفسه عند الغضب، فكم من غضبة جرحت العواطف المرهفة، وشحنت النفوس بالأضغان، وفصمت عرى الإخاء والمحبة والتآلف بين الناس، وكم من غضبة زجّت أناساً من الأبرياء في قعر السجون، وعرّضتهم للتلف، وكم من غضبة أثارت الحروب، وسفكت الدماء، فذهب ضحيتها الآلاف من الأبرياء.

دور الوصية في إيجاد الصبر والثبات

وكانت هذه الوصية من إمامنا الباقر عليه السلام لجابر ليحثّه على الصبر على مشاق الدعوة ومواقفها التي تتطلّب صبراً عالياً، ومقاومة شديدة، وضبطاً للنفس لا يقدر عليه إلا أهل اليقين الصامدون في خندق العقيدة، والثابتون على طريق المبدأ، ذلك أن إقامة الخلْق على العبودية لله تعالى تُكلِّفهم أن يخرجوا على هوى أنفسهم، وينعتقوا من أسر عاداتهم، وما ورثوه عن آبائهم، وما ألفوه في حياتهم من الطقوس والتقاليد الجاهلية، وهذا ما يشقّ على النفوس، ويستحيل على كثير من الناس أن يستجيبوا له.

«إذن فمن المناسب هنا أن يبادر مَن هم من أمثال الإمام الباقر عليه السلام لنصيحة جابر (وعبره إلى كل مؤمن تبلغه هذه الوصية) : «**إنْ كُذِّبْتَ فَلا تَغْضَبْ**»، فعندما لا يكون ثمّة قصد غير طلب الخير للآخرين وإنّ الطرف الآخر لا يُقدِّر ذلك حقّ قدره فيتعيّن على الذين ينتهجون نهج الأنبياء أن يستعدّوا للسيطرة على أنفسهم ومشاعرهم عندما يواجَهون بتكذيب المعارضين وأن لا يغضبوا.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 64، ص 302.

(2) م.ن، ج 74، ص 151.

فـإذا لم يُعِدّ المرء نفسه مسبقاً لمواجهة مثل هـذه السلوكيّات فسوف لن يتمالك نفسه ويخرج عن حالتـه السويّة، لكنّـه إذا لقّن نفسه قبل الولوج في هذا الميدان فسوف لـن يشقّ عليه كثيراً تكذيب المكذّبيـن ومعارضة المعارضين. فإذا أحبّ المرء نصيحـة الآخرين طلباً لخيرهم فليحدّث نفسه قائـلاً: إذا كُذِّبـتُ فعلـيّ أن لا أعبأ بكلامهم. فإنّ علـى عاتقي مهمّة وقد أدّيتهـا؛ وإنّ على الطرف المقابل تكليفاً وهو مخيّر بين أن يعمل أو لا يعمل به، فهو الذي يتحمّل في النهاية مسؤوليّة فعله، ولا أتحمّـل أنا أيّ مسؤوليّة، وعندها لن يغضب في مقابل إسـاءة الآخرين له. وهذه هي الوصيّة الثالثة التي وجّهها الإمام عليه السلام إلى جابر، وفّقنا الله وإيّاكم للعمل بها إن شاء الله» »[1].

جعلنـا الله وإياكم مـن المهتدين بهدى النبي الأعظـم والأئمة الأطهـار عليهم السلام ومن المقتفين آثارهم السالكين منهاجهم الآخذين بحجزتهم والماكثين في ظلّهم، فإنهم كانوا:

لا يَغضَبونَ لِغَيرِ اللّهِ إن غَضِبوا ... وَلا يُضَيِّعونَ حُكمَ اللّهِ إن حَكَموا

الرُكنُ وَالبَيتُ وَالأَستارُ مَنزِلُهُم ... وَزَمزَمٌ وَالصَفا وَالحِجرُ وَالحَرَمُ

صَلّى الإِلَهُ عَلَيهِم أَينَما ذُكِروا ... لِأَنَّهُم لِلوَرى كَهفٌ وَمُعتَصَمُ[2]

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 4 / آب / 2011م.

(2) أبو فراس الحمداني، في ميميته الخالدة.

بالمدح لا يفرحون

نـص الـوصـيّـة

روي عـن الإمـام الباقر عليه السلام في وصيتـه لتلميـذه وصاحبه جابـر قـال : «وَإِنْ مُدِحْـتَ فَـلا تَفْرَحْ»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

المـحـــاور:

- مقدّمة.
- لو مدحوك ما رفعوك.
- الممدوح الذي زكّاه ربّه سبحانه وتعالى.
- النعمة الإلهيّة في ستر العيوب.
- نقد للأخلاق البشريّة.
- كي لا تُصيبنا النشوة من إطراء الآخرين.
- فخّ الرياء.

مقدّمة

الفقرة الرابعة من وصية: إمامنا الباقر عليه السلام: لتلميذه وصاحبه جابر «**وَإِنْ مُدِحْتَ فَلا تَفْرَحْ**»[1].

«يُحبّ الإنسان بطبيعته أن يكون حسن السمعة وأن يذكره الناس بالمزايا والصفات الإنسانيّة المثلى، ويكره - في المقابل - أن يذمّه الآخرون وينتقصوا من شأنه في غيابه، فهل ينبغي للإنسان أن يفرح من مديح الآخرين ويستاء من ذمّهم له؟ وهل يتعيّن عليه يا تُرى أن يأتي بما يوجب ثناء الناس عليه من الأفعال وينتهي عمّا يدفعهم لذمّه وملامته؟ أم إنّ عليه أن يُخفي محاسنه عن الناس ويُظهر عيوبه لهم؟»[2].

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[5]، فمن تدبّر هذه الآيات المباركة كان على علم أنه ينبغي للإنسان العاقل أن يزهد في مدح الناس وثنائهم، فسواء مدحه الناس أو ذمّوه، الأمر عنده سيّان، ما دام يعمل لإرضاء الله، وأمّا الروايات الشريفة من السنة النبوية وأحاديث أئمة الهدى عليهم السلام فهي تُحذّر المرء من التظاهر أمام الناس، وكشف حسناته لهم كي لا يوجب ذلك الرياء، وهي تحضّه أيضاً على عدم فسح المجال لهم ليمدحوه؛ وحثّته على اجتناب الرضا عند المدح والغضب عند الذم.

ولم يرض مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بالثناء عليه مع كمال تقدّسه، فقال حين مدحه قوم في وجهه: «اللهم إنّك أعلم بي من نفسي وإنّي أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلنا خيراً ممّا يظنّون واغفر لنا ما لا يعلمون»[6].

لو مدحوك ما رفعوك

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 162.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 4 / آب / 2011م.

(3) سورة النجم، الآيتان 39 و 40.

(4) سورة النساء، الآية 49.

(5) سورة المدثر، الآية 38.

(6) العلامة محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 70، ص 295

قال الشيخ المفيد رضوان الله عليه: وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1] [2] نزلت في واحد بعينه نادى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «**يا محمد إن مدحي زين، وإن شتمي شين**»[3]، فإذا عرفت أيها المسلم: بأن الناس لو مدحوك ما رفعوك، ولو ذمّوك ما خفضوك؛ فلا تكترث عند ذلك لمدحهم ولا ذمّهم، وكن على يقين أنّ الناس قد يمدحونك اليوم ويذمونك غداً، وكم من عبد تقي نقي أخوف ما عنده أن يشعر الناس به؛ لأنه يعلم أنه لا أمن له إلا عند الله، ولا عزّ ولا كرامة له إلا من الله. واعلم أنّ الموفَّق لا يتأثّر بثناء الناس وإذا سمع ثناءً لم يزده ذلك إلا تواضعًا وخشية من الله، وأيقن أن مدح الناس لك فتنة، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**كم من مغرور بحسن القول فيه كم من مفتون بالثناء عليه**»[4]، فادع ربّك أن يُنجيك من تلك الفتنة واستشعر عظمة الله، وضعف الخلق وعجزهم وفقرهم، واستصحب دومًا أنّ الناس لا يملكون جنة ولا نارًا، والنفوس تصلح بتذكّر مصيرها، ومن أيقن أنه يوسَّد في اللحد فريدًا أدرك أنه لن ينفعه سوى إخلاصه لربّه، ومن طمع في الخلق لم يخل عن الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك العاقل ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يُصيب وقد يُخطئ وإذا أصاب فلا تفي لذّته بألم منّته ومذلّته، فماذا نريد ممّا عند الناس؟ قال تعالى حاكياً قول قلوب الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[5]، وقال مادحاً لهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾[6]، فكونوا من المهتدين بهداهم والمقتفين آثارهم، والسالكين منهاجهم، والآخذين بحجزتهم، والماكثين بظلّهم، يعود خير ذلك عليكم.

الممدوح الذي زكّاه ربّه سبحانه وتعالى

مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والثناء عليه بما هو أهله، إنما هو لإبراز ظواهر القدوة والأسوة والعصمة لشخصه الشريف، فقد مدحه وزكّاه ربّه عزّ وجلّ في القرآن، وأثنى عليه، فمدحه بحسن الخلق ومدحه بشفقته على أمته، ورأفته بها وحرصه على هدايتها، والله تعالى زكّى عقله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[7]، وزكّى لسانه فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ

(1) سورة الحجرات، الآية 4.

(2) الشيخ المفيد أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري، المسائل العكبرية، ج1، ص52، تحقيق علي أكبر الإلهي الخراساني، نشر دار المفيد للنشر والتوزيع – لبنان، ط 2، 1993م.

(3) الشيخ المفيد، المسائل العكبرية، ص 51.

(4) الآمدي التميمي عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد، غرر الحكم و درر الكلم، ج1، ص 319.

(5) سورة الإنسان، الآية 9.

(6) سورة الإنسان، الآية 5.

(7) سورة النجم، الآية 2.

يُوحَىٰ ﴾[1]، وزكّى بصره فقال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2]، وزكّى فؤاده فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[3]، وزكّى قلبه فقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[4] وزكّى أذنه فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾[5]، وزكّى صفته فقال: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[6]، وزكّى وجوده فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[7]، وزكّى فعاله فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[8]، وزكّى رسالته فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾[9]، وزكّى دينه فقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[10]، وزكّى جليسه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾[11] وزكّى أهل بيته الطيبين، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[12]، وزكّاه كُله فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[13]، فالذين عصمهم الله لا نهي عن مدحهم إذا جنبوا قول الغلاة:

جنّبوهم قول الغلاة وقولوا ... ما استطعتم في فضلهم أن تقولوا
فإذا عدت سماء مع الأرض ... إلى فضلهم، فذاك قليل

وقال بعض العلماء أن من يعرف بكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نهي في مدحه إذا لم يكن فيه مجازفة، وإن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير، والازدياد منه، أو الدوام عليه، وأن النهي محمول على المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، ومخافة الفتنة على من يعجب ويصاب بالنشوة إذا سمع المدح والثناء، «فالمدح بذاته ليس عيباً، خصوصاً إذا كان من أجل التعريف بالحقّ والإعانة على طريق الصواب. فلا يكون مدح امرئ مذموماً إلاّ إذا اتّخذ طابع التملّق والإطراء الزائف»[14].

---

(1) سورة النجم، الآيتان 3 و 4.
(2) سورة النجم، الآية 17.
(3) سورة النجم، الآية 11.
(4) سورة آل عمران، الآية 159.
(5) سورة التوبة، الآية 61.
(6) سورة التوبة، الآية 128.
(7) سورة الأنفال، الآية 33.
(8) سورة الشورى، الآية 52.
(9) سورة التوبة، الآية 33.
(10) سورة المائدة، الآية 3.
(11) سورة النجم، الآية 5.
(12) سورة الأحزاب، الآية 33.
(13) سورة القلم، الآية 4.
(14) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزدي، بتاريخ 6 آب 2011م.

النعمة الإلهيّة في ستر العيوب

«إنّ من النعم الإلهيّة الكبرى التي مَنّ الله بها علينا هي ستره لعيوبنا؛ فلو انكشفت عيوب الناس واطّلع كلٌّ على نقائص الآخرين وسيّئاتهم وقبائحهم لما بادل أحد أحداً المحبّة؛ فقد جاء في الخبر: «لو تكاشفتم ما تدافنتم» أي لو كُشف عن أعمالكم لما أقدم أحد على دفن جنائزكم. إذن فمن نِعَم الله جلّ شأنه علينا هي ستره على عيوبنا، بل وحتّى إنّه سبحانه لا يجيز لنا من الناحية الشرعيّة أن نبوح بسيّئاتنا للآخرين»[1]. فالأصل هو في ستر العيوب وهي نعمة إلهيّة منّ بها الله عزّ وجلّ على عباده ليتمكّنوا من الإفادة من النعم والبركات الاجتماعيّة على نحو أفضل، وجميعنا تقريباً يحظى بهذه النعمة وعلينا أن نشكر الباري تعالى عليها.

فعندما يكون للمرء وجاهة وسمعة طيّبة في المجتمع يحترمه الناس ويحسنون به الظنّ الأمر الذي يتيح له فرصة الانتفاع من معونة الآخرين ضمن إطار الحياة الاجتماعيّة المشتركة. وهذه نعمة إلهيّة عظيمة وهي تتطلّب منّا شكراً أيضاً، لكنّ المشكلة تكمن في أنّ هذه المسألة تتّخذ طابع الإفراط أحياناً فتكون مطلوبة بذاتها بالنسبة للإنسان، وهو عندما لا يكون المرء إنساناً صالحاً لكنّه يحبّ أن يعرفه الناس بالصلاح وينسبون إليه ما لم يأت به من الصالحات. فهذه حالة تتّسم بالإفراط وهي صفة ذميمة ترجع إلى حبّ الذات وحبّ السمعة، وهذا هو ما أشار إليه الإمام عليه السلام في هذه الرواية. فالقرآن الكريم يقول في ذمّ الكافرين وضعيفي الإيمان من الناس: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾[2].

الذم والمدح في الأخلاق الإلهية

من الواضح في المدارس الإلهيّة والرؤى التوحيديّة أنّه من المذموم أن يشعر الإنسان بالاستقلاليّة في مقابل الله سبحانه وتعالى، وإنّ كلّ طريق يقود الإنسان إلى هذه النهاية يُعدّ خطيراً. من هنا فإنّ جميع الحسنات والكمالات في المدارس الإلهيّة تُنسب إلى الله عزّ وجلّ، وإنّ ملاك حسنات المرء يعود إلى عبوديّته لله الواحد. لهذا فإنّ الشخص المؤمن الموحّد لا يعتقد لنفسه بالأصالة في مقابل الباري تعالى أبداً؛ فشعاره دائماً: «على الناس أن يعبدوا الله وحده ويحبّوه». وإنّه إنْ طلب حبّ الناس له فسيكون ذلك في ضوء حبّهم لله؛ بمعنى أنّه يعلم أنّ علّة حبّ الناس له هي أنّهم يشاهدون بعضاً من نور صفات الله الحميدة فيه، أمّا غير المؤمن فإنّ نفسه وذاته هي المناط دائماً. فهو

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزدي، بتاريخ 2011/08/05.

(2) سورة آل عمران، الآية 188.

يريد أن يحبّه الناس هو؛ من دون أن يكون حبّهم لله أو عدم حبّهم له مهمّاً بالنسبة له. وإنّ المؤمن – انطلاقاً من نظرة الأخلاق التوحيديّة – يحبّ أن يكون محبوباً لدى الآخرين كي يشكّل ذلك وسيلة لتقرّبهم إلى اللّه؛ لأنّ فطرة الإنسان تحبّ كلّ خير وحسن. وهذه النظرة تُعدّ في الواقع فضيلة.

عندما قدم الإمام الخمينيقدّس سرّه إلى مدينة قمّ المقدّسة وأثناء حضوره في أحد المجالس بالغ الحاضـرون فـي المجلس في إظهار عواطف المـودّة ومشاعر المحبّة لشخصه بـل إنّ بعضهم كان يبكي شوقاً ولهفة إليه. وحينما وصل إليه الدور في الكلام وبعد أن استهلّ كلامه ببسم اللّه الرحمن الرحيـم قال: «أحمد اللّه تعالـى على أن أفهَمَني أنّ محبّة الناس هـذه ليست هي لشخصي؛ بل هي أمارة على ما يكنّونه من حبّ للدين». أجل فهناك من يفرح لحبّ الناس له لأنّ حبّاً كهذا يكون سبباً في إشاعة دين اللّه في الأرض. فإن لم يصل فهم أحد إلى إدراك أمثال مَن يحمل مثل هذه الصفات فـلا ينبغي له القـول: «هذا كذب، فالإسلام يريـد أن يربّي أناساً يتساوى عندهـم مدح الناس لهم وعدم مدحهم».

كي لا تصيبنا النشوة من إطراء الآخرين

«إذا شئنا أن نعرف كيف نحارب آفة حبّ الذات في أنفسنا كي لا نفرح كثيراً من مديح الآخرين، فعلينا أن نفهم أنّ ما يبديه الناس من مديح وثناء ينقسم إلى عدّة أقسام:

1. المديح الذي لا يمتّ للشخص الممدوح بأيّ صلة: وإنّ فرحه به هو لون من ألوان الفرح الزائـف؛ كأن يقال: «فلان مـن أهل المدينة الفلانيّة التي أنجبـت الكثير من العلماء»! أو أن يقـال: «كان جـدّه مـن كبـار علماء عصـره». فأيّ صلـة لمثل هذا الإطـراء بهذا الشخصـ؟! وأي مديح يكون له بهذا الـكلام؟! فمحاربة هذا النمط من الوساوس ليس بالأمـر المعضل جـدّاً، وسيفهم الإنسان بقليل من التأمّـل والتفكّر أنّه لا علاقة له بهذه الألوان من الإطراء.
2. مـدح المـرء بسبب ما وهبـه اللّه من مواهب وصفـات: كأن يُثنى على امرئ لمـا أوتي من نعم وكمالات وما وُهب من الإمكانيّات؛ كأن يكون قد جدّ في طلب العلم، وعبد اللّه، وقدّم الخدمات للعبـاد، أو كان سبباً في نجـاة أمّة من الضلالة، أو امتلك صفات أخلاقيّة حسنة دفعته لإنجاز صالـح الأعمال، كما لـو اتّصف بالسخاء أو الصفـح والتجاوز... وللمـرء أن يفرح قليلاً بهذا المديـح، لكن عليه التفكير أوّلاً بقضيّة أنّه ليـس هو الذي حصل بنفسه على هذه النعم، بل إنّ اللّه جلّ وعلا هو المتفضّل بها عليه وإنّ عليه في مقابلها تكليف الإفادة منها على أحسن وجه.

ثمّ إنّ عليه ثانياً أن يلتفت إلى هذه النقطة وهي: هل إنّ كلّ مَن مُنح هذه الإمكانيّات والنعم فهو عزيز عند الله؟! فلربّما كان هناك من هم أقلّ منه إمكانيّة بكثير وقد ظفروا بحسن العاقبة، ولربّما وُجد مَن يفوقه بالإمكانيّات فأصبح سبباً في ضلالة جماعة من الناس. فهذه الفضائل لا تُشكّل سبباً وجيهاً لتفاخر المرء بنفسه.

فالمرء يُدرك أنّ تلك الكمالات ليست من نفسه، ومع ذلك تجده يفرح كثيراً من إطراء الآخرين، ممّا يفسح المجال لوسوسة الشيطان له.

وهنا ينبغي للمرء من أجل الخلاص من شرّ وساوس الشيطان أن يتنبّه إلى أربعة أمور؛ فعليه:

أوّلاً: أن يعلم أنّ القسم الأعظم ممّا قام به من أعمال حسنة إنّما هو ببركة توفيق الله له وأنّه تعالى هو الذي هيّأ له المقدّمات لذلك. فلو فكّر المرء مليّاً في ذلك لوجد أنّ دور إرادته في كلّ ما يقوم به قد يكون أقلّ من واحد بالمائة، فكم من الوسائل والأسباب قد وفّرها الباري عزّ وجلّ من أجل أن تكون للمرء هذه الإرادة!

ثانياً: عليه الالتفات إلى قضيّة مهمّة وهي أنّه من غير المعلوم أنّ هذه النعمة التي استمرّ الله تعالى في إعطائه إيّاها إلى هذه اللحظة ستستمرّ بعد ساعة من الآن، فمن يدري أنّ العلم الذي يمتلكه الإنسان سيبقى إلى ما بعد ساعة. فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾[1]؛ فقد يمتدّ عمر الإنسان إلى أتعس مراحله من الشيخوخة حتّى أنّه لا يعود يعلم شيئاً بعد ما كان عالماً ومطّلعاً. فالذين يبتلون بمرض الآلزايمر في الكبر قد لا يعرفون حتّى أبناءهم. فإن كانت لدينا نعمة فهي باقية بإرداة الله عزّ وجلّ وهو إن لم يُرد لم نبق متمتّعين بها.

ثالثاً: أنّ على الإنسان أن يقلق من مآله وعاقبته. إنّهم لكثيرون أولئك الذين عاشوا عمراً طويلاً وهم يتمتّعون بطيب السمعة بين الناس وقدّموا خدمات جليلة لكنّ عاقبتهم كانت الكفر! ومن هنا فليس للإنسان أن يفخر بأيّ كمال أو يطمئنّ به. أمّا النقطة الرابعة التي ينبغي الالتفات إليها فهي أنّ الفرح من تملّق الآخرين وكلامهم المعسول قد يوقع الإنسان في فخّ الرياء ويشكّل مقدّمة لسقوطه. ومن هنا يقول الإمام الباقر عليه السلام لجابر: «**إذا تعرّضت للمديح والإطراء فلا تفرح ولا تشعر بالنشوة كثيراً**»![2].

(1) سورة الحج، الآية 5.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 6 / آب/ 2011م.

الحذر من فخّ الرياء

إنّ الله حذّرنا من الرياء في الأقوال والأفعال، وذلك في كثير من آيات القرآن الكريم، وبيّن لنا سبحانه أن الرياء يُحبط الأعمال الصالحة، فقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، فالرياء من صفات المنافقين الذين أخبرنا الله عنهم أنّهم في الدرك الأسفل من النار، وكفى بهذا واعظاً للمسلم العاقل قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويُحبّ أن يُحمد في جميع أموره**»[3]. فقد يعمل الإنسان عملاً خالصاً لوجه الله تعالى، وقد ينال بهذا العمل علو الرتبة عند الله تعالى، وقد يلحقه بجوار النبيين والصديقين، ونفس هذا العمل إذا كان الإنسان مرائياً فيه، فإنّ عاقبته البعد عن ذلك الجوار العزيز والرد إلى زمرة العاصين بسبب الرياء. ولهذا فالمؤمن دائم الحرص على البعد عن كل سبب يؤدّي للوقوع في الرياء، ويدفعه بكل ما أوتي من علم عندما يخطر بقلبه، وتراه حريصاً على إخفاء العبادات المستحبة، ومسارعاً بالبعد عن مجالسة المدّاحين وأهل الرياء، وعالماً أنّ من أسباب الرياء الشعور باللذّة والتنعّم عندما يمدحه الناس، فمن كمال تواضعه للرب عزّ وجلّ وإظهار العبودية له لا يقبل المدح والثناء من المدّاحين من المنافقين والمداهنين، وفّقنا الله وإياكم لمراضيه والبعد عن معاصيه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

---

(1) سورة البقرة، الآية 264.

(2) سورة النساء، الآية 142.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 1، ص 73.

لا يجزعون

نص الوصيّة

روي عن الإمام الباقر عليه السلام في وصية لتلميذه وصاحبه جابر قال: «**وإن ذُممت، فلا تجزع**»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 164.

المحاور:

- مقدّمة.
- الذم لغة.
- الجزع لغة.
- العاقل لا يجزع.
- المخلص الحقيقي.
- أهمّية الوقوف على عيوب النفس.
- ترك الجزع من الحقّ.
- الثواب المجّاني.

مقدّمة

أرسل الله عزّ وجلّ أنبياءه ورسله الكرام عليهم الصلاة والسلام لاستنقاذ البشر من براثن الشرك والشيطان ولنصيحة أقوامهم لما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فقال الله تعالى في كتابه الكريم حاكياً عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، فتبيّن أنّه يجب على الناصح أن يكون عالماً بما ينصح به، وقال الله تعالى حاكياً قول نبيّه هود عليه السلام:

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[2]، ونقل الله تعالى ما قاله نبيه صالح عليه السلام لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾[3].

والنصيحة هي: الإخلاص وتخليص الشيء من الشوائب مع إصلاح العمل، والنصيحة في الشرع كلمة جامعة تتضمّن قيام الناصح للمنصوح له ببيان وجوه الخير إرادة وعملاً، والناصح محسن كما قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]، إذاً فالناصح المشفق محسن والمحسنون أجرهم عند الله عظيم، وكان دأب أنبياء الله ورسله عليهم السلام تقديم النصح والإرشاد إلى الخير، وكذلك دأب أوصيائهم الكرام والخُلّص من أتباعهم عليهم السلام، ولكنّهم لم يلاقوا من أعدائهم إلا التهمة والأذية بعد الكفر بما أنزل الله تعالى، وكذلك لم ينالهم من المنافقين والفسقة والمستهترين إلا الذم والتنقص، والسخط والملامة، فلا تجزع أيها الناصح إن وجدت أقواماً ذمّوك لنصحك لهم، أو لا يحبون قولك من النصيحة، فقد ذمّوا رسل الله تعالى وأوصياءهم من قبلك.

الذم لغة

قال أحمد بن فارس في مقاييس اللغة: «الذم: الذال والميم في المضاعف أصلٌ واحد يدلُّ على

(1) سورة الأعراف، الآية 62.

(2) سورة الأعراف، الآية 68.

(3) سورة الأعراف، الآية 79.

(4) سورة التوبة، الآية 91.

خلافِ الحمد. يقال ذَمَمْتُ فلاناً أذُمُّه، فهو ذميمٌ ومذموم، إذا كان غير حميد»[1].

وقال ابن منظور في لسان العرب: «الذم: نقيض المدح وذَمَّ يَذُمُّ ذَمّاً وهو اللوم في الإساءة، والذَّمُّ والمَذموم واحد، والمَذَمَّة: الملامة»[2]. وذم الشخص: عابه، وهجاه، ولامه، وانتقصه.

الجزع لغة

قال الرَّاغب الأصفهاني: «الجزع أبلغ من الحزن، فإنّ الحزن عام، والجَزَع هو: حُزْن يَصْرِف الإنسان عمَّا هو بصدده، ويَقْطَعه عنه»[3].

والجزع نقيض الصبر، والجزوع ضدّ الصبور، ويقال: جزع فلان يجزع جزعاً وجزوعا إذا ضعف عن حمل ما نزل به، ولم يجد صبراً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ......﴾[4].

العاقل لا يجزع

تحدّثنا في الدروس السابقة حول بعض دلالات وصيّة الإمام الباقر عليه السلام يقول فيها لجابر: «**يَا جَابِرُ... أُوصِيكَ بِخَمْسٍ: إِنْ ظُلِمْتَ فَلا تَظْلِمْ، وَإِنْ خَانُوكَ فَلا تَخُنْ، وَإِنْ كُذِّبْتَ فَلا تَغْضَبْ، وَإِنْ مُدِحْتَ فَلا تَفْرَحْ**»، وقد قدّمنا بحدود ما وفّقنا الله توضيحاً للوصاية الأربع الأولى.«**أمّا وصيّة الإمام** عليه السلام **الخامسة فهي: «وَإِنْ ذُمِمْتَ فَلا تَجْزَعْ**»، فقد وضّح الإمام عليه السلام الجملة الأخيرة فقال: «**وَإِنْ ذُمِمْتَ فَلا تَجْزَعْ، وَفَكِّرْ فِيمَا قِيلَ فِيكَ؛ فَإِنْ عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا قِيلَ فِيكَ فَسُقُوطُكَ مِنْ عَيْنِ الله عزّ وجلّ عِنْدَ غَضَبِكَ مِنَ الْحَقِّ أَعْظَمُ عَلَيْكَ مُصِيبَةً مِمَّا خِفْتَ مِنْ سُقُوطِكَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى خِلافِ مَا قِيلَ فِيكَ فَثَوَابٌ اكْتَسَبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ**» أي: «**إذا واجهك أحد بسوء الكلام فلا تجزع! وفكّر فيما إذا كان ما قيل فيك حقّاً أم باطلاً ؟ فإن كان حقّاً فلا تنزعج؛ لأنّك إذا انزعجت، فإنّما تنزعج من أمر هو حقّ، وهذا يُسقطك من عين الله، فإنّه لا قيمة عند الله تعالى لمن يستاء وينزعج من الحقّ، وأمّا إذا كان ما قيل فيك باطلاً، فاعلم أنّ ثواباً سيُكتب لك في صحيفة أعمالك إزاء هذا الذمّ بلا جهد ولا تعب، وهذا أيضاً ليس ممّا**

(1) أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، ج 2، ص 245.

(2) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج 12، ص 220.

(3) الحسين بن محمد بن المفضل، مفردات ألفاظ القرآن، ج 1، ص187، ط: دار القلم، دمشق.

(4) سورة المعارج، الآيات 19 – 22.

يدعو إلى الانزعاج»[1].

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «**أيّها الناس اعلموا أنّه ليس بعاقل من انزعج من قول الزور فيه، ولا بحكيم من رضي بثناء الجاهل عليه**»[2]. فالعاقل من يضع الأشياء في مواضعها ويعلم عاقبة الأمور ومبادءها ومنافعها ومضارها، فلا محالة يتحمّل الصبر على النوائب والسكون في المصائب ولا يضطرب من قول الزور والكذب فيه، ولا يجزع من الافتراء عليه وإن كان ذلك بلية عظيمة لعلمه بنور عقله بأن أمثال ذلك من المصائب بعد وقوعها لا ينفعه إلا الصبر والسكون واللجأ إلى الله تعالى، وأن للحزن والجزع والاضطراب مصائب أخرى مهلكة، فيصبر ويسكن ويفوّض أمره وأمر خصمه الفاسق الكاذب إليه سبحانه ليكتسب بذلك أجر الصابرين، ويحفظ نفسه عن الهلاك، فمن انزعج واضطرب وتحرّك نحو الانتقام علم أنّه ليس بعاقل لجهله مضرّة ذلك ومنافع الصبر[3].

المخلص الحقيقي

«نلاحظ أنّ الإمام عليه السلام لم يضف على النصائح الأربع السابقة شيئاً لكنّه لم يكتف في الخامسة بقوله: «**وَإِنْ ذُمِمْتَ فَلا تَجْزَعْ**» بل أردفها بالتوضيح. فما فرق هذه الجملة عن سابقاتها؟ ولماذا اكتفى في الجمل الأربع السابقة بذكر النصيحة من دون توضيح؟

وفقاً للظاهر وفيما يتّصل بالمديح فإنّ المرء لا يتوقّع أن يمتدحه الجميع، بل ولا يرى لنفسه مثل هذا الحقّ. أمّا بخصوص الذمّ، فهو لا ينتظر أن يذمّه أو يقرّعه أحد. فالمدح بذاته ليس عيباً، خصوصاً إذا كان من أجل التعريف بالحقّ والإعانة على طريق الصواب. فلا يكون مدح امرئ مذموماً إلاّ إذا اتّخذ طابع التملّق والإطراء الزائف. أمّا فيما يتعلّق بالذمّ فالإنسان يرى أنّ من حقّه أن لا يذمّه الآخرون، وهو بشكل طبيعيّ يستاء عند التعرّض للملامة.

ومن هنا، فإنّ إهانة الآخرين، والاستهزاء بهم، ونسبة العيوب اليهم، وغيبتهم، ورميهم بمختلف التهم حرام، فانزعاج الإنسان من هذا الأمر يرجع إلى شعوره بأنّ حقّاً قد سُلب منه؛ كما هو الحال فيما يتعلّق بسائر الحقوق، فعندما يُغتصب من المرء حقّ فإنّه – بشكل طبيعي – يستاء، وكذا إذا أسيء إليه بقول لا سيّما إذا كان ذلك بحضور الآخرين. وبناءً على ذلك تحتاج النصيحة الخامسة

---

(1) من محاضرة لآية الله الشيخ مصباح اليزدي ألقاها (دامت بركاته) بتاريخ 6 آب 2011م.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص51، تحقيق وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية. طهران، ط5، مطبعة حيدري، 1363ش، باب رواية الكتب ،الحديث،...، ح14.

(3) المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج 3، ص206، ضبط وتصحيح السيد علي عاشور، طبع ونشر دار إحياء التراث العربي – لبنان، ط 1، 2000م، باب النوادر.

إلـى مزيـد من التأكيد على أنّه: حذار في مثل هذه المواطن من أن تغضب وتثور! ومن هذا المنطلق فقـد وضّـح عليه السلام لجابر، في هذا المـورد كيفيّة كبح سَورة الغضـب بقوله: **«إذا ذمّـك أحد، ففكّر بالأمر، وقُل لنفسك: هل إنّ ما يقوله صحيح؟ وهل أنا هكذا حقّا»؟**[1].

المعـروف والمشهور مـن سير أنبياء الله ورسله الكـرام وأوصيائهم عليهم السلام توجيهاتهم الدائمة للإنسـان أن يُحاسب نفسه كل يوم وليلة، كما مر فـي الأخبار، فعند المساء ينظر ويتفكّر فيما عمل بـه فـي اليوم وساعاته ومـا قصّر فيه من طاعاته، ومـا أتى به من سيئاتـه، فيستغفر الله، ويحمده استـدراكاً لمـا فات منه مـن الحسنات واستمحـاء لما أثبت فـي دفاتر أعماله مـن السيئات، وفي الصبح يتفكّر لما جرى في ليله من الغفلات وفات منه من الطاعات، فيتلافى ذلك بالذكر والدعاء والاستغفـار، ويتوب إلـى ربّه العالم بالخفايا والأسرار، فقد روي عـن مولانا الإمام الحسن بن علي المجتبـى عـن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا يكون العبـد مؤمناً حتى يُحاسب نفسـه أشدّ من محاسبة الشريـك شريكـه، والسيـد عبده»**[2] وقال مولانا الإمـام موسى الكاظم عليه السلام: **«ليـس منّا من لم يُحاسب نفسه كل يوم»**[3].

فطوبـى لـذي قلب سليم أطـاع من يهديه وتجنّـب ما يرديـه، فيدخل مدخل الكرامـة، فأصاب سبيـل السلامـة يبصـر ببصره، وأطاع هـادي أمـره. ويمكننا القـول إنّ زبدة المخاض في شرح وبيـان وصيـة مولانا الإمام الباقر محمد بـن علي عليهما السلام: **«وَإنْ مُدِحْـتَ فَلا تَفْـرَحْ، وَإنْ ذُممْتَ فَلا تَجْـزَعْ»** قـد جاءت علـى لسان ولده الإمام أبـو عبد الله جعفر بن محمـد الصادق عليه السلام فقال في فصـل خطابـه وجليل جوابه: **«لا يصير العبد عبداً خالصاً لله عزّ وجلّ حتـى يصير المدح والذم عنـده سـواء، لإن الممـدوح عنـد الله عزّ وجـلّ لا يصير مذمومـاً بذمّهم، وكذلـك المذموم، فلا تفـرح بمـدح أحـد، فإنّـه لا يزيد فـي منزلتك عنـد الله، ولا يُغنيك عـن المحكوم لـك، والمقدور عليـك، ولا تحـزن أيضـاً بـذمّ أحـد فإنّه لا ينقص عنك بـه ذرة، ولا يحطّ عن درجـة خيرك شيئاً، واكتـف بشهـادة الله تعالـى لـك، وعليـك، قـال الله عـزّ وجـلّ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[4]، ومـن لا يقـدر علـى صـرف الـذمّ عن نفسـه، ولا يستطيع علـى تحقيق المدح لـه، كيف يُرجى مدحـه أو يُخشى ذمّـه، واجعـل وجـه مدحك وذمّك واحداً، وقف فـي مقام تغتنم به مدح الله عـزّ وجلّ لك ورضاه، فـإنّ الخلـق خُلقـوا مـن العجيـن مـن مـاء مهيـن، فليـس لهـم إلا مـا سعـوا قـال الله عـزّ وجلّ:**

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الشيخ مصباح اليزدي (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 6 آب 2011م (بتصرّف).
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 67، ص 72.
(3) م. ن، ج 68، ص 259.
(4) سورة النساء، الآية 79.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1]، **وقال عزّ وجلّ:** ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[2] [3].

أهمّية الوقوف على عيوب النفس

«يتّصف الإنسان - بشكل طبيعيّ - بحبّ الذات ولا يرغب في أن يرى في نفسه نقصاً، أو عيباً، أو ذنباً. وحتّى عندما يرتكب المعصية في العلن، فهو يختلق لنفسه المبرّرات ويحاول إقناعها بأنّه يمتلك الحقّ في هذا التصرّف، أو عندما يكون غير مطّلع على أمر وقد سُئل عنه فهو يحاول الإجابة بشكل لا يَشعر معه المقابلُ بجهله، كي لا يقول صراحة: لا أعلم!

وهذا السلوك يدلّ على أنّ الإنسان بطبيعته شديد الحبّ لنفسه، ولا يودّ أن يقف على عيوبه. ولذا فعندما يعيبه أحدٌ مّا فإنّ أوّل ما يتبادر إلى ذهنه هو أنّ هذا الشخص يكذب وأنّني بريء من هذا العيب. فكثيراً ما توجد في المرء عيوب تكون غائبة عن باله؛ لأنّ من جملة حيل النفس - التي تُعدّ موجوداً عجيباً إلى أبعد الحدود - هي سترها لعيوب الإنسان ونقائصه حتّى عن نفسه، فهي أحياناً تجعل الأمر مشتبهاً على الإنسان نفسه فتُظهر نفسه له بشكل لا يُصدّق معه أنّه إنسان سيّئ.

ومن هنا يقول أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**فَكِّرْ فِيمَا قِيلَ فِيكَ**»، أي: إنّ وجود هذا العيب فيك أو عدمه مبهم بعض الشيء حتّى بالنسبة لك، وقد لا تُصدّق بوجوده من دون تفكير وتأمّل، فإنّ الكثير من الرذائل كالحسد، والتكبّر، والأنانية موجودة، وإن كانت بمراتب ضعيفة، عند كثير من الناس لكنّهم غير مصدّقين بذلك»[4].

إن ضرورة التفكّر للوقوف على عيوب النفس، يحتّم علينا ويوجّهنا للسير برحلة البحث في كتاب الله تعالى ويوصلنا إلى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[5]، قال الراغب الأصفهاني: «أصل الزكاة النمو الحاصل من بركة الله تعالى - إلى أن قال -: وتزكية الإنسان نفسه ضربان: أحدهما: بالفعل وهو محمود، وإليه قصد بقوله: قد أفلح من تزكى، والثاني بالقول كتزكيته لعدل غيره، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: لا تزكوا أنفسكم، نهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلاً وشرعاً،

---

(1) سورة النجم، الآية 39.

(2) سورة الفرقان، الآية 3.

(3) م. ن، ج 70، ص 294 ـ 295.

(4) من محاضرة لسماحة آية الشيخ مصباح اليزدي (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 6 آب 2011م.

(5) سورة النساء، الآية 49.

ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن وإن كان حقّاً؟ فقال: مدح الرجل نفسه»[1].

وفي هذا الموضع يطيب لنا أن ننقل كلاماً نفيساً لصاحب تفسير الميزان العلامة الطباطبائي أعلى الله مقامه حيث يقول: «قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ إضراب عن تزكيتهم لأنفسهم، وردّ لهم فيما زكوه، وبيان أنّ ذلك من شؤون الربوبية يختص به تعالى، فإن الإنسان وإن أمكن أن يتصف بفضائل، ويتلبّس بأنواع الشرف والسؤدد المعنوي غير أن اعتناءه بذلك واعتماده عليه لا يتم إلا بإعطائه لنفسه استغناء واستقلالاً، وهو في معنى دعوى الألوهية والشركة مع رب العالمين، وأين الإنسان الفقير الذي لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة والاستغناء عن الله سبحانه في خير أو فضيلة؟ والإنسان في نفسه وفي جميع شؤون نفسه، والخير الذي يزعم أنه يملكه، وجميع أسباب ذلك الخير، مملوك لله سبحانه محضاً من غير استثناء، فماذا يبقى للإنسان؟ وهذا الغرور والإعجاب الذي يبعث الإنسان إلى تزكية نفسه هو العجب الذي هو من أمهات الرذائل، ثم لا يلبث هذا الإنسان المغرور المعتمد على نفسه دون أن يمس غيره، فيتولّد من رذيلته هذه رذيلة أخرى، وهي رذيلة التكبّر، ويتمّ تكبّره في صورة الاستعلاء على غيره من عباد الله، فيستعبد به عباد الله سبحانه، ويجري به كل ظلم وبغي بغير حق وهتك محارم الله وبسط السلطة على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم، وهذا كله إذا كان الوصف وصفاً فردياً، وأما إذا تعدّى الفرد وصار خلقاً اجتماعياً وسيرة قومية، فهو الخطر الذي فيه هلاك النوع وفساد الأرض، وهو الذي يحكيه تعالى عن اليهود إذ قالوا: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾[2].

فما كان لبشر أن يذكر لنفسه من الفضيلة ما يمدحها به سواء كان صادقاً فيما يقول أو كاذباً لأنّه لا يملك ذلك لنفسه لكن الله سبحانه لمّا كان هو المالك لما ملّكه، والمعطي الفضل لمن يشاء وكيف يشاء كان له أن يزكّي من شاء تزكية عملية بإعطاء الفضل وإفاضة النعمة، وأن يُزكّي من يشاء تزكية قولية يذكره بما يمتدح به، ويشرفه بصفات الكمال كقوله في آدم ونوح...»[3].

ترك الجزع من الحق

بعض النماذج من البشر إذا أساء الناس إليه وذمّوه أو إذا أُصيب بمصيبة تراه وقد أذهب الجزع صبره وأذهل عقله وحال بينه وبين الفهم والإفهام والقول والإسماع، ويغيب عنه أن المصائب التي

(1) الحسين بن محمد بن المفضل، مفردات ألفاظ القرآن، ج 1، ص 436 ـ 437، ط: دار القلم، دمشق.

(2) سورة آل عمران، الآية 75.

(3) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، تفسير سورة النساء، الآية 49، ج 4، ص 373.

تُصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو في أسرته، أو في مجتمعه ليست شرّاً محضاً، يوجب الجزع بل هي خير للمؤمن إن أحسن تلقّيها والتعامل معها، قال النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسراً**»[1].

روى إبراهيم بن مسعود قال: كان رجل من تجار المدينة يختلف إلى جعفر بن محمد [الإمام الصادق] عليه السلام، فيخالطه، ويعرفه بحسن الحال، فتغيّرت حاله، فجعل يشكو ذلك إلى جعفر بن محمد عليه السلام، فقال جعفر:

وَلا تَجزَع وَإِن أُعسِرتَ يَوماً ... فَقَد أَيسَرتَ في الزَمَنِ الطَويلِ

لا تَيأَس فَإِنَّ اليَأسَ كُفرٌ ... لَعَلَّ اللَهَ يُغني مِن قَليلِ

وَلا تَظُنَّنَ بِرَبِّكَ ظَنّ سوء ... فَإِنَّ اللَهَ أَولى بِالجَميلِ

قال إبراهيم بن مسعود: فخرجت من عنده وأنا أغنى الناس[2].

والإمام عليه السلام يتابع في وصيته فيقول: إذا وصلت بتفكيرك إلى نتيجة تقول إنّ هذا العيب موجود فيك فعلاً، لكنّك كنت تُخفيه ولا تُحبّ أن يُعلن على الملأ، فإنّ ما فعله هذا الشخص - بغضّ النظر عن كونه قد ارتكب محرّماً وسيُعاقَب عليه - قد بيّن لك حقيقةً. فهل عليك - يا ترى - أن تضجر وتغضب من اكتشافك للحقيقة؟! فإن أنت فعلت ذلك كان فعلك أسوأ من سابقه؛ لأنّه إذا علم الإنسان بعيبه فأنكره، كان إنكاره هذا عن عمد وسيؤدّي إلى سقوطه من عين الله أكثر من ذي قبل، وسوف لن ينظر الله إليه نظرة لطف ورحمة، فلماذا تخاف من الذمّ إذن؟ هل تخاف أن يُسيء الناس الظنّ بك، فتسقط من أعينهم وتفقد سمعتك ووجاهتك بينهم؟ هل تخشى من أن تُشكّل هذه الإساءة مانعاً من استمرارك في أعمال الخير فلا تستطيع بعدئذ أن تُقدّم ما كنت تُقدّم من خدمات للعباد؟ أم إنّك تخاف من أن تُحرم من خدمة الناس ومساعدتهم لك؟ لكن أيّهما أسوأ: أن تسقط من أعين الناس أو تسقط من عين الله عزّ وجلّ؟ فمَن هم الناس في مقابل الله تعالى كي يُعيرهم الإنسان كلّ هذه الأهمّية؟ فالمهمّ هو أن لا يسقط المرء من عين الباري عزّ وجلّ، فإنّك إن غضبت في هذا المقام، فستسقط من عين الله، وستُبتلى بأسوأ ممّا خفت منه.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 88.

(2) أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج 7، ص 207، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية - لبنان، ط 1، 1410هـ.

الثواب المجّاني

أمّــا إذا قــادك تفكيرك إلى أنّــه لا أساس لكلّ هذه الإســاءات، سواء أكان المســيء مخطئاً في الفهــم، أو تعمّد الإساءة كذباً، فإنّه سيُكتب لك في صحيفــة أعمالك ثوابٌ في كلتا الحالتين. وليس فــي ذلك ما يثيــر الاستياء والانزعاج، (والجزع). بل إنّ ذمّوك بما هــو ليس فيك، فعليك أن تفرح لظفرك بثواب من غير تعب ولا نصَب، بل إنّ ذلك ممّا يوجب الشكر أيضاً[1].

أيهــا المؤمن إذا ذمّــوك وعابوك فلا تجزع أو تجازهم بفعلهم، فإن ذلك يوجب زيادة خشونتهم وذمهــم بل أعطهم مــن الإساءة إليك على سبيل القرض في ذمّتهم لتستوفيه منهم يوم حاجتك في القيامــة.. قال الإمــام الصادق عليه السلام: «**أغلق أبواب جوارحك عمّا يقع ضــرره إلى قلبك ويذهب بوجاهتـك عنـد الله، ويعقب الحسرة والندامة يـوم القيامة، والحياء عمّا اجترحت من السيئات، والمتـورِّع يحتـاج إلـى ثلاثـة أصـول: الصفـح عن عثـرات الخلـق أجمـع، وترك خطيئتـه فيهم، واستواء المدح والذم...**»[2].

وروي عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**قال عيسى بن مريم** عليه السلام **ليحيى بن زكريا** عليه السلام: **إذا قيل فيك ما فيك، فاعلم أنه ذنب ذكرته، فاستغفر الله منه، وإن قيل فيك ما ليس فيك فاعلم أنها حسنة كُتبت لك لم تتعب فيها**»[3].

(1) من محاضرة ألقاها آية الشيخ مصباح اليزدي بتاريخ 6 آب 2011م (بتصرف).

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 67، ص 307، نقلاً عن مصباح الشريعة.

(3) م.ن، ج 14، ص 288.

لأهل البيت عليهم السلام موالون

نـــص الـــوصـــيّـــة

روي عن الإمام الباقر عليه السلام في وصية لتلميذه وصاحبه جابر: «**يَا جَابِرُ! لا تَذْهَبَنَّ بِكَ الْمَذَاهِبُ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ أُحِبُّ عَلِيّاً وَأَتَوَلاَّهُ ثُمَّ لا يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ فَعَّالاً**»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 67، ص 98.

المـــحــــــاور:

- مقدّمة.
- أهمّية ومنزلة الولاية.
- لوازم الولاية.
- من صفات الشيعة.
- تحذيرات المعصومين عليهم السلام.

المقدّمة

يقـول الإمـام الباقر عليه السلام في نفس الحديث حول الموضـوع ذاته: «**يَـا جَابِـرُ! لا تَذْهَبَنَّ بِكَ الْمَذَاهِبُ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ أُحِبُّ عَلِيّاً وَأَتَوَلاّهُ ثُمَّ لا يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ فَعَّالاً**»[1].

فـإذا ظنّ الرجـل أنّه يكون من موالينا أهل البيت بإظهاره الحـبّ لأمير المؤمنين عليه السلام فسنبادر إلـى سؤاله: هـل أن مقام عليّ عليه السلام عند اللّه أعلـى أم مقام محمّد صلى الله عليه وآله؟ فمـن الواضح أنّ مقام رسـول اللّه صلى الله عليه وآله أعلى من مقام عليّ عليه السلام: «**فَلَوْ قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ رَسُـولَ اللّهِ، فَرَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ عليه السلام**»[2].

إذن فمـن أراد أن يكـون مـن أهل الولاية فانّـه يتعيّن عليه أن يكون تابعـاً للإمام عليه السلام بالقول والفعـل، أي ينبغي أن تكون محبّة الإمام في قلوبكـم وآثار هذه المحبّة ظاهرة في سلوككم، فمجرّد الـكلام والادّعـاء لا يُجدي نفعـاً. إذن، فماذا نصنع؟ يُجيب عليه السلام: «**مَـنْ كَانَ للّهِ مُطِيعـاً فَهُوَ لَنَا وَلِيٌّ، وَمَنْ كَانَ للّهِ عَاصِياً فَهُوَ لَنَا عَدُوٌّ**»[3].

«فالذيـن يعصـون اللّه عزّ وجلّ فهـم إنّما يعادوننا أهـل البيت وليسوا من أوليائنـا. فإن كانوا أولياءنـا فينبغي أن تُماثل سيرتُهم سيرتَنا وأن يتّبعونـا. وبطبيعة الحال فإنّ للولاية مراتبَ وإنّ هذه المرتبـة التي يذكرها الإمام الباقر عليه السلام وهي «اتباعنـا حذو النعل بالنعل» هي المرتبة العليا من مراتـب الولايـة وهي المرتبة التي كان يسعى لنيلها مَن هم من أمثال جابر. فإنّه لمثل هذا الرجل - الذي علّمه الإمام عليه السلام خمسين ألف حديث لا يحقّ له نقل واحدٍ منها»[4].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 74.

(2) م.ن.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 232 ـ 248.

(4) من محاضرة لسماحة آية اللّه الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 6 آب 2011م.

أهمّية ومنزلة الولاية

لـم يُعـطَ أصل من أصول الدين بعد التوحيـد والنبوة أهمية بالغة كما أُعطيـت إمامة وولاية الأئمة الطاهرين من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد تصدّى علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام وعلى مرّ الأزمان لبيـان الأدلة النقليـة والعقلية على أصل إمامتهـم وولايتهم، ومن ثم مستلزمات هـذه الولاية التي هي بالأصـل ولاية الله تعالـى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان مستندهم في كل ذلك كتـاب الله المجيد والسنة النبوية المطهـرة، ومـن ثم أفعال أئمـة الهدى وتقريراتهـم وحديثهم عليهم السلام الذي هو حديـث رسول الله كما قـال مولانا الإمام جعفر بـن محمد الصادق عليه السلام: «**حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث، جدي، وحديـث جـدي حديث الحسيـن، وحديـث الحسين حديـث الحسن، وحديـث الحسن حديـث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم**، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ**»[1].

وإن الله تعالـى بهدايته وتوفيقه لعلماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام يسّر لهم ـ وله الحمد ـ المجيء بالحجـج الساطعة التي لا تترك خليجة، ولا تدع وليجة، فدحضوا كل إشكال، ودرؤوا كل شبهة حاول إلصاقهـا مخالفوهم بولاية الذيـن أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيـراً حتّى أسفر الصبح لـذي عينين وحصحص الحـق لمن رضي به ديناً، وقد روي عـن إمامنا الباقر عليه السلام صاحب هذه الوصية التي نتشرف بخدمتها «**والله، لا يجعل الله من عادانا ومن تولاّنا في دار واحدة**»[2].

لوازم الولاية

إنّ أهـم لـوازم الإيمان بهذا الحق هـو الحبّ له، والعمـل به، فمن المسلَّم بـه أنّ حبّهم عليهم السلام إيمـان وبغضهـم والعياذ بالله نفـاق، وسرّ ذلـك يكمن في أمر رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين بالتمسّك بالثقليـن، واقتران العترة بالقرآن يظهر أن إيجـاب محبّتهم لائح من معنى قوله تعالـى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3]، فإنّـه تعالـى جعل شكـر إنعامه، وإحسانه بالقـرآن منوطاً بمحبتهم علـى سبيـل الحصر، ولعلّ أول ما يخطر ببـال الأخ المسلم، والأخت المسلمـة أنه لا يوجد مسلم أو مسلمـة على وجـه الأرض، إلا ويُحبّان أهل بيـت النبي صلى الله عليه وآله وسلم صحيح، ولكن هل تعلـم أيها المسلم أن

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 51.

(2) القاضـي النعمـان المغربي، شرح الأخبار، ج 3، ص 506، تحقيـق السيد محمد الحسيني الجلالي، نشر وطبع مؤسسة النشر الإسلامي – قم.

(3) سورة الشورى، الآية 23.

-(الحب)- أصله الحقيقي هو اللزوم والثبات، كما نص على ذلك فقهاء اللغة العربية، منهم أحمد بن فارس بن زكريا حيث قال: «**فالحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها اللزوم والثَّبات، والآخر الحَبّة من الشيء ذي الحَبّ، والثالث وصف القِصَر إلى أن يقول: (وهو موضع الشاهد): أمّا اللزوم فالحُبّ والمَحبّة، اشتقاقه من أَحَبَّه إذا لزمه. والمُحِبّ: البعير الذي يَحْسر، فيلزمُ مكانَه**»[1].

إن المودّة والحبّ الحقيقي يُصاحبه سعي عن إرضاء المحبوب، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما عرف الله من عصاه**»، وأنشد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمرك في الفعال بديع

لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبّ لمن أحبّ مطيع[3]

فكيف يمكن أن يكون المحبّ لله ولرسوله ولأهل البيت صادقاً في حبّه، وهو يُخالفهم في العمل، ويعمل على خلاف إرشاداتهم وتعاليمهم؟ يقول الشيخ المظفر رحمه الله تعالى: إنّ الأئمة من آل البيت عليهم السلام لم تكن لهم همّة.إلا. تهذيب المسلمين وتربيتهم تربية صالحة كما يريدها الله تعالى منهم، فكانوا مع كل من يواليهم، ويأتمنونه على سرّهم يبذلون قصارى جهدهم في تعليمه الأحكام الشرعية وتلقينه المعارف المحمدية، ويعرفونه ما له وما عليه، ولا يعتبرون الرجل تابعاً وشيعة لهم إلا إذا كان مطيعاً لأمر الله مجانباً لهواه آخذاً بتعاليمهم وإرشاداتهم، ولا يعتبرون حبّهم وحده كافياً للنجاة كما قد يمنّي نفسه بعض من يسكن إلى الدعة والشهوات ويلتمس عذراً في التمرّد على طاعة الله سبحانه. إنّهم لا يعتبرون حبّهم وولاءهم منجاة إلا إذا اقترن بالأعمال الصالحة، وتحلّى الموالي لهم بالصدق والأمانة والورع والتقوى[3]، وقد روى إمامنا الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنّه لا يُدرك ما عند الله إلا بطاعته**»[4]،

ولذلك أكدوا عليهم السلام أن التشيّع لهم وموالاتهم، هو طاعة الله وولايته والتقوى، فمن التزم ذلك، فهو لهم وليّ، ومن كان لله عاصياً ومخالفاً، فهو لهم عدوّ، حتى لو ادّعى مشايعتهم، وحاول أن يصوّر للناس أنّ مجرّد محبّتهم وممارسة بعض الأعمال البسيطة، كفيل بغفران ذنوبهم، وكان من نتاج دعواه الباطلة أن شجَّع الكثير من الموالين على التساهل في أمور الدّين، وغرّر بهم وأوقعهم في متاهات لا نهاية لها، وأبعدهم كل البعد عن أهداف الأئمة المعصومين عليهم السلام.

---

(1) أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، ج 2، ص 26.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 174.

(3) الشيخ محمد رضا المضفر رحمه الله، عقائد الإمامية، ص 167 ـ 168.

(4) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 232 ـ 248.

من صفات الشيعة

يظهر بوضوح لمن يتتبّع روايات أهل البيت عليهم السلام الصفات الحقيقية للشيعة نذكر منها:

1. شيعتنا من اتقى الله:

في حديث آخر حدّث به إمامنا أبو جعفر الباقر عليه السلام تلميذه النجيب جابر الجعفي، وقد بيّن فيه ماهية المفاهيم التي تُشخِّص صفات الأتباع الحقيقيين لأهل البيت عليهم السلام وجعل هذه المفاهيم أوضح من الشمس في رابعة النهار، فقال عليه السلام: «**يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت، فو الله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشّع والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة، والغارمين والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء...**»[1].

2. شيعتنا أهل الطاعة:

قال الإمام الباقر عليه السلام لجابر: «**أحبّ العباد إلى الله عزّ وجلّ أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر والله ما نتقرّب إلى الله عزّ وجلّ: إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار،ولا على الله لأحد من حجّة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً، فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع**»[2].

3. شيعتنا زين لنا:

وروى أحد أصحاب الصادق عليه السلام قال: سمعت أبا عبد الله يقول: «**عليك بتقوى الله والورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الخلق وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، وعليكم بطول الركوع والسجود، فإنّ أحدكم إذا أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال يا ويله أطاع وعصيت وسجد وأبيت**»[3].

4. شيعتنا أهل الصلاة والقيام لله:

وكتب الإمام الصادق عليه السلام رسالة إلى جماعة من شيعته كتاب جاء فيه: «**وعليكم بالمحافظة**

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 74.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 232 ـ 248.

(3) محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج 12، ص 395.

على الصلوات والصلاة والوسطى، وقوموا لله قانتين كما أمر الله به المؤمنين في كتابه من قبلكم، وعليكم بحبّ المساكين المسلمين، فإنّ من حقّرهم وتكبّر عليهم، فقد زلّ عن دين الله والله له حاقر ماقت، وقد قال أبونا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **: أمرني ربّي بحبّ المساكين المسلمين منهم واعلموا أنّ من حقّر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه والمحقرة حتّى يمقته الناس أشدّ مقتاً..»..**[1]

5. شيعتنا من حفظوا ألسنتهم وكفّوا أيديهم:

روي عن الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام لبعض شيعته: «**بلّغ موالينا عنّا السلام، وقل لهم إنّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً إلاّ بورع، فاحفظوا ألسنتكم وكفّوا أيديكم وعليكم بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين**»[2].

6. شيعتنا من أهل العمل:

قال مولانا الإمام الباقر عليه السلام لصاحبه خيثمة: «**أبلغ شيعتنا أنه لا يُنال ما عند الله إلا بالعمل، وأبلغ شيعتنا أن أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره، وأبلغ شيعتنا أنّهم إذا قاموا بما أمروا أنهم هم الفائزون يوم القيامة**»[3].

7. شيعتنا هم الأورع:

عن علي بن أبي زيد، عن أبيه قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه عيسى بن عبد الله القمي، فرحّب به وقرّب مجلسه ثم قال: «**يا عيسى بن عبد الله (ليس منّا ولا كرامة) من كان في مصر فيه مائة أو يزيدون، وكان في ذلك المصر أحد أورع منه**[4].

وخلاصة القول ما جاء في وصية مولانا الإمام أبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام لشيعته قال: «**أوصيكم بتقوى الله والورع في دينكم، والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم من برّ أو فاجر، وطول السجود وحسن الجوار. فبهذا جاء محمّد** صلى الله عليه وآله وسلم **صلّوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدّوا حقوقهم، فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق في حديثه، وأدّى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا شيعيّ فيسرّني ذلك، اتّقوا**

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 8.

(2) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 79، ص 232.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 1، ص 93.

(4) المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج 14، ص 180.

الله وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، جرّوا إلينا كلّ مودّة، وادفعوا عنّا كلّ قبيح، فإنّه ما قيل فينا من حسن فنحن أهله وما قيل فينا من سوء فما نحن كذلك. لنا حقّ في كتاب الله وقرابة من رسول الله، وتطهير من الله لا يدّعيه أحد غيرنا إلاّ كذّاب، أكثروا ذكر الله، وذكر الموت، وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ الصلاة على رسول الله عشر حسنات، احفظوا ما وصّيتكم به وأستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام»[1].

من هذه الروايات الشريفة وأمثالها يُعلم أن عنوان التشيّع لأهل البيت عليهم السلام ومحتوى منهجهم هو تقوى الله وطاعته، والورع عن محارمه.

ليس منّا

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس منّا من يُحقّر الأمانة - يعني يستهلكها إذا استودعها - وليس منّا من خان مسلماً في أهله وماله**»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس منّا من خان بالأمانة**»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّه ليس منّا من لم يُحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه، وممالحة من مالحه، ومخالفة من خالفه**»[4].

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**ليس منّا من لم يُحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل خيراً استزاد الله وحمد الله عليه وإن عمل شرّاً استغفر الله منه وتاب إليه**»[5].

روى الرضا عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس منّا من غشّ مسلماً أو ضرّه، أو ماكره**»[6].

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**ليس منّا من لم يأمن جاره بوائقه**»[7].

يتضح من روايات أهل بيت العصمة أنّ مجرّد إظهار التشيّع والولاء لأهل البيت عليهم السلام لا يكفي في إثبات صدق هذه الدعوى، وإنّ إظهار المودّة والمحبّة لأهل البيت عليهم السلام إذا لم يقترن بالعمل بالواجبات واجتناب السيئات، فإنّه لا يوجب السعادة في الآخرة والنجاة من المهالك، إن كل من أطاع أوامر الله عزّ وجلّ فهو من محبّي أهل البيت والموالين لهم وكل من عصى الله عزّ وجلّ فهو

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 372.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 172.

(3) م. ن.

(4) م. ن، ج 71، ص 163.

(5) م. ن، ج 67، ص 72.

(6) م. ن، ج 72، ص 284.

(7) م. ن، ج 68، ص 260.

عدوّ لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حتى لو أعلن ولاءه لهم.

اللهمّ إنّا نقسم عليك بحقّ محمّد وآل محمّد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن تمنّ علينا بحقيقة الولاية وأن توفّقنا للسير على نهج أهل بيت نبيّك عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالقول والعمل.

للكتاب حافظون

نص الوصيّة

روي عن الإمام الباقر عليه السلام في وصية لتلميذه وصاحبه جابر قال: «ولكن أعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللهِ؛ فَإنْ كُنْتَ سَالِكاً سَبِيلَهُ، زَاهِداً فِي تَزْهِيدِه، رَاغِباً فِي تَرْغِيبِه، خَائِفاً مِنْ تَخْوِيفِه فَاثْبُتْ وَأبْشِرْ فَإنَّهُ لا يَضُرُّكَ مَا قِيلَ فِيكَ، وَإنْ كُنْتَ مُبَايِناً لِلْقُرْآنِ فَمَاذَا الَّذِي يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص 163.

المحاور:

- مقدّمة.
- دليل يدلّ على خير سبيل.
- نوراً لا تُطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده.
- هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.
- حبل الله المتين والصراط المستقيم.
- الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ.
- منهاجاً لا يضلّ نهجه.

مقدّمة

كان جابــر من خواصّ أصحاب الإمام الباقر عليه السلام وكان شديد الرغبة في الانخراط في زمرة أوليــاء أهل البيت عليهم السلام وأصحاب المقــام الرفيع المتمثّل بالولاية. وبعــد أن أوصى مولانا الإمام الباقــر عليه السلام صاحبه وتلميذه جابر الجعفي قائلاً: «**أوصيـك بخمس... إنْ ظُلمْتَ فَلا تَظْلمْ، وَإنْ خَانُوكَ فَـلا تَخُـنْ، وَإنْ كُذِّبْـتَ فَلا تَغْضَـبْ، وَإنْ مُدحْتَ فَلا تَفْـرَحْ، وإنْ ذُممْتَ فَـلا تَجْزَعْ**»، يرفع الإمام عليه السلام وتيرة كلامه متابعاً بالقول: «**وَاعْلَمْ بأَنَّكَ لا تَكُونُ لَنَا وَليّاً حَتَّى لَو اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلكَ، وَلَوْ قَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ صَالحٌ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلكَ**»[1].

في هذا القسم من الوصية الشريفة يُحدّد الإمام الباقر عليه السلام لجابر بعض المعايير والشروط اللازمــة للظفر بمقام الولايــة السامي فيقول الإمام عليه السلام في هذا الصــدد: إنّ هذا المقام الذي تطلبــه وتنشــده لا يُنال بسهولة ويُسر؛ بل إنّ له شروطــاً وإنّ عليك الاستعداد لبلوغه. فاعلم أنّك لن تنال ولايتنا أهل البيت ما لم تتزيّن بهذه السجيّة وهي؛ أنّه لو اجتمع جميع أهل مدينتك الذين عشت معهم وترعرعت بينهم، وقابلوك ببذيء الكلام، ورفعوا ضدّك الشعارات، فلا ينبغي حتّى أن تحزن لذلك، وعلى العكس فلو اجتمع جميع أهالي تلك المدينة يوماً من الأيّام وصاروا يهتفون باسم جابر وبحياتــه وشهدوا جميعاً على أنّك رجل في قمّــة الصلاح والتقوى، فلا ينبغي أن تفرح لذلك؛ أي: لا بدّ أن يكون وضعك الروحيّ والنفسيّ ثابتاً، سواء شَتَمَك جميع أهل مِصرك أم امتدحوك؛ فلا تحزن لذاك ولا تفرح لهذا.

دليل يدلّ على خير سبيل

فمــا هو التكليف إذن؟ يُجيــب الإمام عليه السلام: «**وَلَكن أَعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فـي كتَاب الله؛ فَإنْ كُنْـتَ سَالـكاً سَبيلَهُ، زَاهداً في تَزْهيده، رَاغباً في تَرْغيبه، خَائفاً منْ تَخْويفه فَاثْبُتْ وَأَبْشرْ فَإنَّهُ لا يَضُــرُّكَ مَـا قيلَ فيـكَ، وَإنْ كُنْتَ مُبَاينـاً للْقُـرْآن فَمَاذَا الَّذي يَغُرُّكَ منْ نَفْسـكَ**»[2]؛ فأعرض نفسك

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص 162.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص 163.

علـى محتـوى القرآن! وانظر فيما إذا كنت كما يريد القـرآن أم لا من دون الاكتراث لإهانات الناس وإطرائهـم فـإذا كنت كما يريد القـرآن الكريم فاشكر الله على ذلك! وإن لـم تكن كذلك فاسعَ في إصلاح نفسك وإزالة عيوبها![1].

لـو كان للهداية وصـف غالب، فلن يكون لها اسم سوى ومسمّى سوى «**القـرآن الكريم**». وهذا ما جسّـده إمـام الهدى وسليل بيـت التقى مولانا الإمـام أبو جعفر محمد بن علـي الباقر عليه السلام، وكي نستفيد تمام الفائدة من هذا التكليف «**أَعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللّه**»، يتوجّب علينا أن نتوجّه إلى من أُنزل عليه القرآن لأنّه لا يمكن أن يتدبّر القرآن من لا يدري حقيقة القرآن، ولا إنزال القرآن، ولا منـزل القـرآن ولا المنزل عليه القرآن محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الأطهار، الذين ينقل لنا ثامنهم عن آبائه عن جـده سيد الأنس والجان قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيّهـا النـاس إنّكم في دار هدنة، وأنتـم على ظهر سفر والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كلّ جديد ويُقرّبان كلّ بعيد، ويأتيان بـكلّ موعـود، فأعدّوا الجهاز لبُعد المجاز قال: فقام المقـداد بن الأسود فقال: يا رسول الله وما دار الهدنـة؟ قـال: دار بـلاغ وانقطـاع، فـإذا التبسـت عليكم الفتن كقطـع الليل المظلـم، فعليكم بالقـرآن، فإنّـه شافع مشفّع وماحل مصدق[2] ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقـه إلـى النـار، وهو الدليل يدل علـى خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيـل وبيان وتحصيل، وهو الفصـل ليسـ بالهـزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيـق وباطنه عميق، لـه نجـوم وعلـى نجومه نجـوم لا تُحصى عجائبـه، ولا تبلى غرائبـه فيه مصابيـح الهدى ومنار الحكمـة، ودليـل على المعرفة لمن عـرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلـغ الصفة نظره، ينج مـن عطـب[3]، ويتخلّص مـن نشب[4]، فـإنّ التفكّر حيـاة قلب البصيـر، كما يمشـي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلّص وقلّة التربّص[5]**»[6].

هـذا هـو الثقل الأكبر الـذي قرنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأهـل بيته الطاهريـن عليهم السلام، وهما الثقلان اللـذان خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمّته ليكونا سببـاً للهداية والنجاة، ما إن تمسّك أبناء هذه الأمة

---

(1) مـن محاضـرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزدي (دامت بركاته) ألقاها في مكتب سماحة وليّ أمر المسلمين بتاريخ 6 آب 2011م (بتصرف).

(2) يعني أنه مجادل مخاصم لمن رفضه وترك العمل بما فيه أوساع يسعى به إلى الله عز وجل مصدق فيما يقول.

(3) العطب: الهلاك.

(4) النشب في الشيء إذا وقع فيما لا مخلص له منه.

(5) التربص: الانتظار.

(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 599.

بهمـا، لأنّهما متلازمان لا يمكن التمسّك بأحدهما دون الآخر، وأن ترك أحدهما معناه تركهما معاً، ومن هنا تأتي عظمة وصية إمامنا الباقر عليه السلام لجابر «**أَعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللّه**».

حقيقة القرآن

مـن الثابـت أنّ عظمة كلّ عمـل بعظمة أثره، وعظمـة الموعظة من عظمة الواعـظ، وإنّ الكلام يعظـم بعظم قائلـه، فكيف إذا كان المتكلِّم هـو اللّه عزّ وجلّ؟ وكلامه جلّ شأنه هـو كتابه الخالد، وحجّتـه البالغـة على الناس جميعاً، ختـم اللّه به الكتب السماوية، وأنزلـه هداية ورحمة للعالمين، وضمّنه منهاجاً كاملاً وشريعة تامّة لحياة المسلمين، وجعله معجزة وآية باقية ما بقي الليل والنهار، أيّـد اللّه تعالـى به مصطفاه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وتحـدّى الإنس والجنّ على أن يأتـوا بسورة من مثله، فكان عجز البلغاء والفصحاء قديماً، وما زال كذلك حديثاً، قال تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

إنّـه مصدر عـزّة هذا الدين وأهله، وسرّ تجدّده في نفوس المسلمين، وهو الذي لا يخلق من كثرة التـرداد، ولا تنقضـي عجائبه، ولا يمله قارئه ولا سامعه، ولا يزداد به المؤمن إلا يقيناً بدينه وتعلّقاً به، إنّه المعجزة الخالدة، والكتاب الذي وعد اللّه بحفظه قائلاً: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2].

فـي خطبة مـن خطبه ذكر الإمام علي عليه السلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بما هـو أهله ثم قال: «**ثمّ أنزل عليـه الكتـاب نوراً لا تُطفـأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحـراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يُظلم ضوءه، وفرقاناً لا يُخمد برهانه، وتبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاء لا تُخشـى أسقامـه، وعزّاً لا تُهزم أنصاره، وحقّاً لا تُخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه، وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضـلّ نهجهـا المسافـرون. وأعلام لا يعمى عنهـا السّائرون، وآكام لا يجـوز عنها القاصدون، جعلـه اللّه ريّاً لعطش العلمـاء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصّلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونـوراً ليـس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعـاً ذروته، وعزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمـن دخلـه، وهدى لمن ائتمّ به، وعـذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلّم به، وشاهداً لمن خاصم**

(1) سورة الإسراء، الآية 88.

(2) سورة الحجر، الآية 9.

به، وفلجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيّة لمن أعمله،وآية لمن توسّم، وجنّة لمن استلأم. وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[1].

فضل القرآن

سنقتصر في بيان فضل القرآن الكريم على بعض الآيات الكريمة التي وصف الله تعالى بها كتابه، ونزراً يسيراً من وصف مولانا رسول الله ﷺ، وأخيه أمير المؤمنين علي عليه السلام فإنه عدل القرآن، وصفه الله تعالى بأوصاف تنبئ عن عظمة شأنه، وقوة حُجَجه وبرهانه، وحسن عاقبته على تاليه والمتدبرِّ له، ويُمنه على أهله العالمين به، فوصفه الله تعالى بأنه نورٌ وهدى وموعظة وذكرى وتبصرة وشفاء، وأنه فرقانٌ وبيانٌ، إلى غير ذلك من أوصافه العظيمة ونعوته الكريمة، ولو لم يكن من ذلك إلا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]. وقوله جلّ شأنه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[3]، لكفى في التنويه بشرفه والإرشاد بفضله، فكيف وقد وصفه الله تعالى بأنه روح من أمره، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾[4]، ووصفه بأنه الهادي إلى أفضل طريق، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[5]، ووصفه الله بأنّه نور، والنور به الإبصار، فقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾[6]، ووصفه بأنه شفاء ورشاد، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[7]، ونعته بأنه كتاب الحق الذي لا يعرض له الباطل قط، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[8]، وقال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[9].

وهنا تكمن أهمية القرآن الكبرى وأهمية ما اشتمل عليه من هداية إلى العقائد الصحيحة، والعبادات الحقّة، والأخلاق الكريمة، والتشريعات العادلة، وما اشتمل عليه من تعاليم بناء المجتمع

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص 21.
(2) سورة النمل، الآية 77.
(3) سورة آل عمران، الآية 103.
(4) سورة الشورى، الآية 52.
(5) سورة الإسراء، الآية 9.
(6) سورة المائدة، الآيتان 15 و 16.
(7) سورة فصلت، الآية 44.
(8) سورة الإسراء، الآية 105.
(9) سورة فصلت، الآيتان 41 و 42.

الفاضـل، وتنظيـم الدولـة القوية. ولـو أراد المسلمـون الخير والصـلاح والعزّة لأنفسهـم وأمتهم لجـدّدوا إيمانهـم بأهمية هذا الكتاب الكريم، والعترة النبوية الطاهـرة، وكانوا جادّين في الالتزام والطاعة لهما، فإنّهم يجدون ما يحتاجون إليه من حياة روحية طاهرة، وقوة سياسية وحربية، وثروة وحضارة، ونعم لا تعدّ ولا تُحصى؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

القرآن في كلام المعصومين عليهم السلام

وصف سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن الكريم، فكان وصفاً حافلاً بمزايا القرآن، جامعاً لفضائله؛ فقد ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**إنّها ستكون فتنة. قُلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم، وحكم مـا بينكم، هـو الفصـل ليس بالهزل، من تركه مـن جبّار قصمه الله، من ابتغـى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تلتبس منه الألسن، ولا يخلق من الرد، ولا تنقضي عجائبه، هـو الـذي لم ينتـه الجنّ إذ سمعته حتى قالوا: إنّا سمعنا قرآناً عجبـاً يهدي إلى الرشد. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم**»[2].

وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً أنه قال: «**القرآن أفضل كلّ شيء دون الله، فمن وقّر القرآن فقد وقّر الله، ومن لم يوقّر القرآن فقد استخفّ بحرمة الله**»[3].

ولمّـا كان القـرآن كلام الله عزّ وجلّ، فلا يُقاس بـكلام المخلوقين، ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**فضـل القـرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**»[4]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**القرآن غنى لا غنى دونه، ولا فقـر بعـده**»[5]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**القـرآن مأدبة الله، فتعلّموا مأدبته ما استطعتم، إنّ هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع**»[6]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أعطاه الله القرآن فرأى أن رجلاً أُعطي أفضل ممّا أُعطي فقد صغّر عظيماً، وعظّم صغيراً**»[7].

---

(1) سورة الأعراف، الآية 96.

(2) المتقي الهندي، كنز العمّال، ج1، ص 175، تحقيق الشيخ صفوة السقا، نشر مؤسسة الرسالة ـ لبنان، 1989م.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 19.

(4) م.ن.

(5) م.ن.

(6) م.ن.

(7) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 181 ـ 200.

منهاجاً لا يضلّ نهجه

ومـن خلال ما تقدّم نجد أنّ رسـول الله ﷺ، وأخاه أمير المؤمنين عليه السلام ومن أجل ربط الأمّة بالقـرآن الكريـم والالتـزام بما جاء فيه من مفاهيم وقيـم وأحكام وأخلاق، قد بيَّنـا لنا أنّ القرآن الكريم رفيق المتّقين، وأنّه ربيع القلوب المتجدِّد، وأنّ القرآن ينابيع العلوم، والشفاء النافع لأمراض الأُمّـة بجميـع أنواعها إن تمسّكت به وجَعلتـه دستوراً لها، وكُانت سَالِكة سَبِيلَـهُ، زَاهدة فِي تَزْهيده، رَاغبة فِي تَرْغيبه، خَائفة مِنْ تَخْويفه، فَإنّها ستكون ثابتة على الحق ولها البشرى، فَإِنَّهُ لا يَضُرُّها مَا قِيلَ فِيها، وَإِنْ كَانَتَ مُبَايِنةَ لِلْقُرْآنِ، فَمَاذَا الَّذِي يَغُرُّها مِنْ نَفْسِها.

وهكـذا أرشدنا مولانا الإمام الباقـر عليه السلام في وصيّته لجابر الجعفـي فعرّفنا الطريقة المثلى للثبـات علـى الحق، وبشّر سالكيها بحسن المـآل، ودلّنا على الطريقة العمليـة للنجاة من الشبهات والفتـن والضـلال عبر إصـلاح النفس وإزالة عيوبها، عبـر وزنها بميزان القـرآن: «**أعرض نفسك على القـرآن الكريم، فإن كنت سالكاً سبيلـه**» فإن قال لك: خفْ، فأنت تخاف، وإذا قال لك: تقدّم، فإنّـك تتقـدّم، وعندما يقول لك: قـف، فأنت تقف، وحينما يقـول لك: أَحِبّ، فأنـت تُحبّ، وإن قال لـك: أبغض، فإنّك تبغض[1]... بذلـك تكون حالاتك مطابقة لأوامر الله تعالى، وعندها تُدرك لماذا قال في فرقانـه الحكيـم: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. وقال وليه الباقر عليه السلام: «**الذكر القرآن، ونحن أهله**»[3].

نعـم فـي بيتهم نزل القرآن، وأهل البيـت أدرى بالذي فيه. وهما يشتـركان معاً في إضاءة عقل الإنســان وروحه وقلبه، ويُوجهانه إلى حيث سعادته في الداريـن، فلولا القرآن لم يكن للحياة هدى، ولا للإنسـان رشـد، ولا علق في طرفه نور، ولولا أهل البيت عليهم السلام لـم يكن للرشد مُرشد، ولا للعلم معلم، ولا للنور مشكاة ومصباح، ولا للنجاة سفينة، فالقرآن الكريم أصل العلم، وأهل البيت عليهم السلام معرفته ومعدنه وبيانه. اللهم صل على محمد وآله، وأدم بالقرآن صلاح ظاهرنا، واحجب به خطرات الوساوس عـن صحة ضمائرنـا، واغسل به درن قلوبنا وعلائـق أوزارنا، واجمع بـه منتشر أمورنا، وأرو بـه في موقف العرض عليك ظمأ هواجرنا، واكسنا به حلل الأمان يوم الفزع الأكبر في نشورنا، واحشرنا مع حبيبك المصطفى محمد وآله الطاهرين.

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزدي ألقاها بتاريخ / 7 آب / 2011م (بتصرّف).

(2) سورة النحل، الآية 43.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 23، ص 181.

للنفس مجاهدون

نص الوصيّة

روي عن الإمام الباقر عليه السلام في وصية لتلميذه وصاحبه جابر قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِيٌّ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ لِيَغْلِبَهَا عَلَى هَوَاهَا، فَمَرَّةً يُقِيمُ أَوَدَهَا وَيُخَالِفُ هَوَاهَا فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَمَرَّةً تَصْرَعُهُ نَفْسُهُ فَيَتَّبِعُ هَوَاهَا، فَيَنْعَشُهُ اللَّهُ فَيَنْتَعِشُ، وَيُقِيلُ اللَّهُ عَثْرَتَهُ، فَيَتَذَكَّرُ وَيَفْزَعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَخَافَةِ، فَيَزْدَادُ بَصِيرَةً وَمَعْرِفَةً لِمَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 163.

المحاور:

- مقدمة.
- كيف نُجاهد من لا نعرفه؟
- معرفة النفس أنفع المعارف.
- الجهاد الأكبر.
- الحبّ يُذلّل المصاعب.
- الله ناصر المؤمن ومعينه.
- العلاقة بين الخوف والمعرفة.

مقدّمة

«هـذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام ينطوي على مبحـث رفيع المستوى وصعب المنال للغاية. ومن الواضح أنّه عليه السلام قد أسدى هذا النصح لجابر إذ وجد فيه الاستعداد لتقبّله؛ أمّا أمثالنا فقد نُصــاب باليأسـ عندما نسمع مثل هذا الكلام ونقول: بما أنّنا لا نستطيع أن نكون كذلك فلن نُعَدّ من أصحاب ولاية أهل البيت عليهم السلام.

ولعـلّ هــذا الشيء هو الذي جعل الإمام عليه السلام يُتبِع حديثه هذا ببيان عامّ تربويّ مشبّهاً المؤمن فــي هــذه الدنيا بالمصارع الــذي يتصارع مع نفسه ويحــاول التغلّب عليها، فتــارةً تعلو همّته وتقوى إرادتــه، فيوفَّق بعون من الله عزّ وجلّ في الغلبة علــى النفس وصرعها، وتارةً أخرى تصرعه النفس وتطرحــه أرضاً. فأبطال المصارعة لم يصبحوا أبطالاً بيــن ليلة وضحاها، بل إنّهم قد عكفوا على التمريــن لفترات طويلــة وصُرِعوا وصَرَعوا مراراً حتّــى بلغوا هذه المرحلة، وإنّــه ليس أمام كلّ مَن يرغــب فــي الوصول إلى هــذا المستوى سوى هذا الــدرب. وكذا المؤمن فهو فــي حالة مصارعة مع نفسه؛ فقد تتغلّب عليه النفس أحياناً وتصرعه أرضاً، لكن لا ينبغي أن ييأس ويقول: إنّني لن أستطيع التغلّب على نفسي. فأنا غارق لا محالة، ولا فرق إن غرقت بين شبر من الماء ومائة شبر! لكن الأمر ليســ بهــذه الصورة، فكلّما قلّت المسافــة التي تفصلنا عن سطح المــاء كان أفضل، وحتّى المقدار القليــل يكون ذا أهمّية أيضاً. فإن صُرعت أرضاً مرّةً فانهض، وواصل النزال مع نفسك بهمّة أصلب وعزيمــة أشدّ رسوخاً، وتوكّل على الله تعالى، وستنتصر في المــرّة الثانية، فالدنيا حلبة مصارعة، وعلى كلّ امرئ أن يصارع فيها نفسه باستمرار»[1].

كيف نجاهد من لا نعرفه؟

كان بالمستطــاع البــدء بالحديث عن مجاهدة المؤمــن نفسه ليغلبها على هــواه، فندلي في هذا الموضــوع بدلونــا، ولكنّنــا آثرنا قبل البدء بذلــك أن نطرح هذا السؤال الذي قــد يخطر على بال أي متتبّع لهذا الموضوع، وهو: كيف نقوم بمجاهدة من لا نعرفه؟ ولا نعرف إمكاناته وتجهيزاته وخططه!

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ /7/ آب / 2011 م.

خصوصاً أنه قد ورد عن نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**أعدى عدوّك. نفسك التي بين جنبيك**»[1]. وود عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[2]. وقال عليه السلام: «**من عجز عن معرفة نفسه، فهو عن معرفة خالقه أعجز**»[3]. وعنه عليه السلام قال: «**أفضل العقل معرفة المرء نفسه، فمن عرف نفسه عقل، ومن جهلها ضل**»[4]، وقال عليه السلام: «**من عرف نفسه جاهدها**»[5].

ونحن في سؤالنا هذا لا نريد أن يكون موضوعنا هذا عن معرفة النفس، والطريق الذي يتوجّب سلوكه في هذا الأمر، ولكنّنا أردنا أن نثير دفائن العقول بهذا السؤال الذي طرحناه.

ولأن المؤمن لن يتمكّن من مجاهدة نفسه، ولن يعرف كيف يتغلّب على هوى النفس قبل أن يعرفها، وأمثال جابر الجعفي وإخوانه الكرام من أصحاب أئمة الهدى كانوا يعرفون أنفسهم، وبالتّالي يعرفون ربّهم وهذا ما مكّنهم من مجاهدة أنفسهم والارتقاء بها إلى درجات العليين. وقد جاءت معرفتهم هذه من تشرُّفهم بصحبة وملازمة الأئمة الهداة المهديين من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصدقهم وإخلاصهم لهذه الصحبة والملازمة وتدبّرهم لأقوال وأفعال وتقرير المعصومين عليهم السلام.

معرفة النفس أنفع المعارف

يقول العلامة الطباطبائي أعلى الله مقامه في شرح قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين**»[6]: «الظاهر أن المراد بالمعرفتين المعرفة بالآيات الأنفسية والمعرفة بالآيات الآفاقية، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[8].

وكون السير الأنفسي أنفع من السير الآفاقي، لعله لكون المعرفة النفسانية لا تنفك عادة من إصلاح أوصافها وأعمالها بخلاف المعرفة الآفاقية. وذلك أن كون معرفة الآيات نافعة إنما هو لأن معرفة الآيات بما هي آيات موصلة إلى معرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله. ككونه تعالى

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 67، ص 64.
(2) ابن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 5952.
(3) م.ن.
(4) الآمدي التميمي عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، 3001.
(5) م.ن، 8758.
(6) م.ن، 1675.
(7) سورة فصّلت، الآية 53.
(8) سورة الذاريات، الآيتان 20 و 21.

حياً لا يعرضه موت، وقادراً لا يشوبه عجز، وعالماً لا يُخالطه جهل، وأنه تعالى هو الخالق لكل شيء، والمالك لكل شيء، والرب القائم على كل نفس بما كسبت، خلق الخلق لا لحاجة منه إليهم بل لينعم عليهم بما استحقّوه، ثم يجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

إلى أن يقول: فتخلص ممّا ذكرنا أن النظر في الآيات الأنفسية والآفاقية ومعرفة الله سبحانه بها يهدي الإنسان إلى التمسّك بالدين الحق والشريعة الإلهية من جهة تمثيل المعرفة المذكورة الحياة الإنسانية المؤيدة له عند ذلك، وتعلقها بالتوحيد والمعاد والنبوة، وهذه هداية إلى الإيمان، والتقوى يشترك فيها الطريقان معاً أعني طريقي النظر إلى الآفاق والأنفس فهما نافعان جميعاً غير أنّ النظر إلى آيات النفس أنفع، فإنّه لا يخلو من العثور على ذات النفس وقواها وأدواتها الروحية والبدنية وما يعرضها من الاعتدال في أمرها أو طغيانها أو خمودها، والملكات الفاضلة أو الرذيلة، والأحوال الحسنة أو السيئة التي تُقارنها، واشتغال الإنسان بمعرفة هذه الأمور والإذعان بما يلزمها من أمن أو خطر، وسعادة أو شقاوة لا ينفك من أن يعرفه الداء والدواء من موقف قريب، فيشتغل بإصلاح الفاسد منها، والالتزام بصحيحها بخلاف النظر في الآيات الآفاقية، فإنه وإن دعا إلى إصلاح النفس وتطهيرها من سفاسف الأخلاق ورذائلها، وتحليتها بالفضائل الروحية لكنّه ينادي لذلك من مكان بعيد، وهو ظاهر»[1].

الجهاد الأكبر

قال الله العظيم في مُحكم كتابه وجليل خطابه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[2] ومن معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: جاهدوا في الله أنفسهم، وجاهدوا الكفار، وجاهدوا المنافقين، وجاهدوا الشيطان... فالآية عامة تشمل جميع أنواع الجهاد، ومن ذلك: جهاد النفس؛ لأنه سبحانه حذف المفعول، ولم ينص عليه في الآية، حتى تعم كل أنواع الجهاد.

ويقول عزّ وجلّ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾[3]، إنّ الجهاد في الإسلام هو بذل الجهد واستفراغ الوسع في سبيل أمر من الأمور؛ وهو بهذا المعنى يشمل ثلاثة أنواع من الجهاد: جهاد أعداء الإسلام، ويكون بالنفس والمال وبكلِّ ما يملك المسلم من طاقة، وهو فرض كفاية، إذا قام به المُؤَهَّلون له، أجزأ عن الآخرين وعن أهل الأعذار الّذين لا يستطيعون أن يجاهدوا. وهناك جهاد

(1) المفسِّر العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، تفسير سورة المائدة، آية 105.

(2) سورة العنكبوت، الآية 69.

(3) سورة العنكبوت، الآية 6.

آخـر هو جهاد النفس والهـوى وهو الأكبر، وهذا الجهاد فرض عَيْن علـى كلِّ مسلم، وقد عُدَّ جهاداً أكبر، لأنه جهاد مستمرٌّ دائم ما استمرّت الحياة، ولا يتمكّن من جهاد عدوّه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوّه، ومن نُصِرَتْ عليه نُصِرَ عليه عدوّه.

روى الإمـام موسـى بن جعفـر عليه السلام عن أبيه، عن آبائـه، عن أمير المؤمنيـن عليهم السلام قال: إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث سريّة، فلمّـا رجعوا قال: «**مرحباً بقـوم قضوا الجهاد الأصغـر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ فقال: جهاد النفس**»[1].

وقـال أميـر المؤمنين عليه السلام: «**جاهـد نفسك على طاعـة الله مجاهـدة العدو عـدوّه وغالبها مغالبـة الضـد ضدّه، فإنّ أقوى الناس من قوي على نفسه**»[2]، وقال عليه السلام: «**إنّ مجاهدة النفس لتزمها عن المعاصـي وتعصمها عن الردى**»[3]، وقال عليه السلام: «**غايـة المجاهدة أن يجاهد المرء نفسه**»[4] وقال عليه السلام: «**رأس العقل مجاهدة الهوى**»[5]، «**طوبى لمن غلب نفسه ولم تغلبه، وملك هواه ولم يملكه**»[6]. ولقد أجاد الشاعر بقوله:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع.

إنّ أيّ مؤمن من المؤمنين، وبغضّ النظر عن منسوب التقوى الذي عنده يعلم علم اليقين أنّ هذه الوصيـة التي أوصاها إمامنـا الباقر عليه السلام لصاحبه جابر مطابقة تمامـاً للفطرة التي فطره الله عليها، وقد مرّ بها كثيراً في خلواته بل تولّد لديه إحساس هو أشبه باليقين أنّ الإمام الباقر عليه السلام كأنّما يعيش معه في تلك الحالة، ويوجّهه بذلك التوجيه الحكيم.

الحبّ يُذلّل المصاعب

أشار الإمام الباقر عليه السلام في هذه الوصية إلى التفاتات تربويّة قيّمة، فيقول: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِيٌّ بِمُجَاهَـدَةِ نَفْسِـهِ لِيَغْلِبَهَا عَلَى هَوَاهَا**»؛ فديدن المؤمن واهتماماته هي في جهاد نفسه: «**فَمَرَّةً يُقِيمُ أَوَدَهَـا وَيُخَالِـفُ هَوَاهَـا فِـي مَحَبَّةِ الله**»[7]؛ فهـو يتمكّن أحياناً من تقويـم اعوجاجاتها وانحرافاتها

(1) الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج 16، ص148 ـ 167.

(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، 2434.

(3) م.ن.

(4) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، 2434.

(5) م.ن.

(6) م.ن.

(7) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 13، ص 245.

ويخالـف هواها في سبيل محبّة الله عزّ وجلّ. وهذه العبارة تحتوي على ملاحظة جديرة بالاهتمام؛ فلـو أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقل: «**فِي مَحَبَّةِ الله**» لكانت العبـارة تامّة، فلماذا أضاف هذا الجار والمجرور؟ الجـواب: هذا الجار والمجرور هـو لتبيين سبيل شيّق للتغلّب على الهوى بحيث يتمكّن المرء بسلوكه مـن التغلّـب على هواه من جانب والشعور باللذّة من جانب آخر. فـإن عثر الإنسان على هذا السبيل وعرف قدره فسيجد أنّه سبيل قيّم إلى أبعد الحدود.

نقـرأ فـي المناجـاة الشعبانيّة: «**إلهي لم يكن لـي حولٌ فأنتقـلَ به عن معصيتـك إلاّ في وقت أيقظتنـي لمحبّتـك وكما أردتَ أن أكونَ كنتُ**»[1]، فمخالفة النفس تكون أيسر إذا كانت محفوفة بجوّ من المحبّة. فالطفل المتعلّق كثيراً بأبويه عندما يزداد عبثه وإيذاؤه للآخرين ولا يُصغي لتوجيهات أبويه تقول له أمّه: «إذا كنت تُحبّني فلا تفعل ذلك». فإن كان النهج المتّبَع في تربيته صحيحاً وكانت عواطفه مشبعة فسيشكّل هذا الكلام أفضل رادع يردعه عن ممارسة الأعمال القبيحة.

فـإن كان قلب الإنسـان عامراً حقّاً بمحبّة الله تعالى، وكان يُـدرك أنّ الله أحبّ من أيّ محبوب، وأنّ كلّ سبـب للمحبّـة هـو في الواقع شعـاع من الفيوضـات اللامتناهية له عزّ وجـلّ، فإنّه سيترك القبيـح بـكلّ سهولة ويسر إذا قال له ربّه: «إذا كنت تُحبّني فلا تفعل ذلك». لكنّ السؤال الذي يتبادر إلـى الذهن هنا هو: هل يقـول الله مثل هذا القول؟ والجواب: نعم، فعندمـا يقول الباري جلّت آلاؤه فـي كتابه العزيـز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2]، أو يقـول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3]، فهو في الحقيقة يستخدم النهج التربويّ ذاته؛ فكأنّه يقول: إذا كنت تُحبّني فلا تتكبّر، وإذا كنت تُحبّني فكن مـن الصابريـن. فهذه الطريقة هي من أفضل السبل التي يُمكـن أن يسلكها المرء لترك المعصية. ومـن هنـا فإنّ ذكر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لهذه العبارة: «فِي مَحَبَّةِ الله» يتضمّن - في حقيقة الأمر - إشارة لهذه الطريقة المثلى.

الله ناصر المؤمن ومعينه

يتابـع الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيّتـه فيقول: «**وَمَرَّةً تَصْرَعُهُ نَفْسُهُ فَيَتَّبِـعُ هَوَاهَا**»، أي يتّبع ما تهوى وتُحبّ. ففي نزال المصارعة هذا تتغلّب النفس على الإنسان حيناً فتصرعه، ويغلبها هو طوراً فيطرحهـا أرضاً. فعندما يذوق الشخص المتفلّت من الالتزامـات الدينيّة طعم المعصية مرّة تراه

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج91، ص98.

(2) سورة لقمان، الآية 18؛ وانظر سورة الحديد، الآية 23.

(3) سورة آل عمران، الآية 146.

يلهـث وراءها بولع وشغف في كلّ مرّة. أمّا المؤمن فهـو ليس بهذه الصورة، والمؤمن المفتَرَض هنا هـو ذلك الإنسان الذي يكـون في حالة صراع مع نفسه وهو يحاول صرعهـا على الدوام لكنّه يخفق مـن بـاب الصدفة في هذا النـزال فتصرعه نفسه. فاللّه في هذه الحالة يمـدّ له يد العون ولا يدعه يُسحَق تحت سطوة نفسه تقديراً لما اتّصف به من الإيمان والتقوى. «**فَيَنْعَشُهُ اللّه فَيَنْتَعِشُ، وَيُقِيلُ اللّهُ عَثْرَتَهُ فَيَتَذَكَّرُ، وَيَفْزَعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَخَافَةِ فَيَزْدَادُ بَصِيرَةً وَمَعْرِفَةً لِمَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ**»؛ فشخص كهذا يساعده اللّه على الوقوف على قدميه مرّة أخرى ليستمرّ في النزال مع النفس، ويغضّ جـلّ وعلا طرفه عن عثراته، وهو (هذا الإنسان) بـدوره يتذكّر ويتنبّه بأنّه قد اقترف خطأً عظيماً. وفي إثر الخوف الناشئ من هذه الحالة يزيد اللّه في بصيرته ومعرفته، فتراه لذلك يستأنف النزال بقوّة أشدّ وعزيمة أكبر.

والالتفاتة التربويّة الأخرى التي ينطوي عليها هذا الكلام هي أنّ المرء في هذا النزال ليس أنّه لا ينبغي أن يتسلّل اليأس إلى قلبه إذا سقط أرضاً فحسب، بل لا بدّ أن يحدوه الأمل بتنامي قوّته أيضاً. فعليـه أن يتوجّـه إلى اللّه بعد سقوطه ويلجأ إليه بالتوبة والإنابة، قائـلاً له: «إلهي! أخشى أن أصرع إنْ أنا اتّكلت على قدرتي. فكن أنت معيني وحافظي». هذا الالتفات إلى الباري عزّ وجلّ والخوف من سخطه يبعث على تقوية روح الإنسان وتعزيز إرادته الأمر الذي يُضفي كمالاً إلى كماله. ولعلّ المراد من قولـه تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾[1] هو أنّ الإنسان إذا تاب بعد ارتكاب الخطيئة، فإنّ نفس هذه الحالة المتمثّلة بالإنابة واللجوء إلى اللّه هي ضرب من ضروب العبادة وهي حالة لم تكن موجودة لديه قبل اقتراف الذنب. فمضافاً إلى أنّ حالة التضرّع والتوسّل هذه تساعد على محو عمله السابق، فإنّها تُضفي عليه كمالاً مضاعفاً، أي إنّها تُزوّده بقدرة أكبر على اكتساب النورانيّة.

العلاقة بين الخوف والمعرفة

ثـمّ يستدلّ الإمام عليه السلام بآية مـن الذكر الحكيم فيقول: «**وَذَلِكَ بِـأَنَّ اللّه يَقُولُ**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[2]». فالمؤمـن الـذي تبدُر منه زلّة في حين من الأحيان لا يُعدّ من أتباع الشيطان وليس ثمّة شيطان مُقيَّض له بحيث يكون قرينه ورفيقه. فمـا يُستفاد من الآيات القرآنيّـة هو أنّ العلاقة بين الشيطان والنـاس لا تكون بشكل واحد؛ فبعض النـاس يتجسّد الشيطان فيهـم بالكامل، وبعضٌ يكونون قرناء الشيطـان أي يصبح الشيطان رفيقاً

(1) سورة الفرقان، الآية 70.

(2) سورة الأعراف، الآية 201.

دائمياً لهم، أمّا البعض الآخر فلا يوجد شيطان قرين أو مُوَكَّل بهم بشكل مستمرّ، بل إنّ الشياطين التي تطوف وتدور على نحو متواصل تميل عليهم إذا رأت ضالّتها فيهم؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهـذا الميـل من قِبَل الشيطان على المرء يُمثّل تلـك الزلّة التي تنتاب الإنسان فـي حين مـن الأحيان. وبمجرّد أن يرتكب أناس كهؤلاء الخطيئة فانّهم ينتبهـون إلى قبيح فعلهم، فإذا التفتوا إلى العقاب الذي ينتظرهم جرّاء هذا الفعل فإنّ بصيرتهم تتفتّح: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾. يقـول عزّ من قائـل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]. إذن هناك تناسـب بين الخشية والعلم؛ فكلّمـا زاد علـم المرء بالله، وبصفاته، وبحكمته، وبأهدافه، ازداد الخـوف في قلبه؛ أي زاد شعوره بالحقـارة والضعـف في مقابل بارئـه والخوف من سقوطه من عين الله عزّ وجـلّ. فإذا تنامت هذه الحالة في نفسه كثُر لجوؤه إلى الله تعالى وتضاعف لذلك لطف الله به، فتراه يطوي مراتب الكمال الواحدة تلو الأخرى حتّى يصل إلى أعلاها.

إذن لا بـدّ أن يكـون خوفكم جدّياً؛ فكثيرون هم الذين يدّعون الخوف من الله ومن عذابه بَيْد أنّ خوفهـم لا يتّسم بالجدّيـة. فالناس في العادة يخشون محن الحياة الدنيا وعذابها وهم لهذا السبب يبذلون قُصارى جهودهم في سبيل الخلاص منها. فإذا كانت خشيتنا من عذاب الله عزّ وجلّ خشية حقيقيّة فلا بدّ أن يكون حذرنا أشدّ. فإذا كان خوف المرء خوفاً جدّياً فهو حتماً سيزيد في بصيرته: «فَيَزْدَادُ بَصِيرَةً وَمَعْرِفَةً لِمَا زِيدَ فِيه مِنَ الْخَوْف».

الإنســان المؤمـن هو باستمرار فـي حالة صراع مع نفسه وإنّ الله ناصـره في هذا النزال وهو لا يتخلّـى عنـه بتاتاً. فإن زلّ وسقط أرضـاً، فإنّ الله لمعرفته بأنّه من أهل الإيمـان وأنّه قد عزم على عدم اقتراف المعصية سيمدّ إليه يده ويُنهِضه ليستأنف النزال من جديد. ففي كلّ مرّة يُصرع فيها أرضاً تزداد قوّته وتتضاعف منعته أمام خصمه حتّى يبلغ حدّاً يستطيع معه الدخول في نطاق ولاية أهـل البيت عليهم السلام. فبعد أن أشار إمامنا الباقر عليه السلام إلى تلـك الشروط الصعبة، استدرك فذكر هـذه الملاحظـات كي لا ييأس الآخرون من العثور على سبيل الوصـول إلى الكمال المتمثّل بالولاية. فـلا ينبغـي للإنسان المؤمن أن ينتابه اليأسـ نتيجة مصارعة النفس أو السقـوط أرضاً، بل ينبغي أن تكـون عزيمتـه أكثر رسوخاً، وخوفه أشدّ كي يزيد الله جـلّ شأنه في بصيرته. زاد الله تعالى في بصيرتنا أجمعين[2].

---

(1) سورة فاطر، الآية 28.

(2) من محاضرة سماحة آية الله مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 7 آب 2011م (بتصرّف).

الشاكرون

نص الوصيّة

روي عن الإمام الباقر عليه السلام في وصية لتلميذه وصاحبه جابر: «يَا جَابِرُ اسْتَكْثِرْ لِنَفْسِكَ مِنَ اللهِ قَلِيلَ الرِّزْقِ تَخَلُّصاً إِلَى الشُّكْرِ، وَاسْتَقْلِلْ مِنْ نَفْسِكَ كَثِيرَ الطَّاعَةِ للهِ إِزْرَاءً عَلَى النَّفْسِ، وَتَعَرُّضاً لِلْعَفْوِ»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 163.

المحاور:

- مقدّمة
- أهمّية مسألة الشكر.
- طريقة الإمام الباقر عليه السلام لإيجاد الدافع للشكر.
- عليك أن تَعُدّ كافّة آلاء الله عظيمة.
- المحبوبون عند الله تعالى.
- روحية استكثار النعمة.
- الشكر يزيد من النعم.
- من لم يشكر الناس لم يشكر الله.
- أئمة الشكر.

مقدّمة

قيل: الشَّكور أبلغ من الشاكر لأنّ الشاكر هو الذي يشكر على العطاء، والشَّكور هو الذي يشكر على البلاء، وقيل: الشاكر الذي يشكر على الموجود، والشَّكور الذي يشكر على المفقود.

وكلّنا يعلم أنّ الشكر هو واحدة من القيم الأخلاقيّة المهمّة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[1]، لكنّ السؤال المطروح هنا هو: كيف يمكن للمرء أن يكون شكوراً وأن يظفر بالدافع إلى الشكر؟ فمن عادتنا جميعاً أن نقول بعد تناول الطعام: «الحمد لله». هذا العمل وإن اعتُبر شكراً لله وأنّه حسن جدّاً، لكنّه ليس كافياً. فماذا نصنع لنكون أناساً شكورين؟ والإمام الباقر عليه السلام يشير إلى هذه المسألة في موطنين على الأقل من وصيّته لجابر.

أهمّية مسألة الشكر

تحظى مسألة الشكر في النظرة القرآنيّة بأهمّية بالغة. فما يطلبه الله تعالى منّا يفوق بكثير الاكتفاء بقول: «الحمد لله» بعد تناول الطعام. هناك العديد من الكتب التي جُمعت فيها الأحاديث التي تتحدّث عن الصبر والشكر، وهذا دليل على الأهمّية القصوى التي تحظى بها هذه المسألة. إذن علينا أن نفهم أنّ الشكر ليس من المفاهيم العاديّة حتّى ننظر إليه نظرة عابرة.

الملاحظة الأخرى التي تتعلّق بأهمّية مسألة الشكر هي أنّ علماء الكلام وعند خوضهم في المباحث الكلاميّة أو البحث المتّصل بإثبات وجود الله تعالى فإنّهم عادة ما يطرحون هذا السؤال: ما هي ضرورة الخوض في أمثال هذه المباحث؟ إذ أنّ هناك البعض - ونخصّ بالذكر أولئك المنبهرين بالثقافة الغربيّة - ممّن يطرح الشبهة القائلة: ما هي حاجتنا أساساً للتطرّق إلى مسألة: هل يوجد في هذا الكون إله أم لا؟ فإن كنّا ملتزمين بعدم الكذب وعدم الخيانة، وعدم ممارسة الظلم، ونسعى لأن نكون أناساً صالحين، فإن كان يوجد إله فلا بدّ أنّه يحبّ الإنسان الصالح وإن لم يكن فالبحث مضيعة للوقت.

فكيف نستطيع تحفيز الإنسان على البحث في مسألة أصل وجود الله تعالى وصفاته؟ فنحن لا

---

(1) سورة سبأ، الآية 13.

نستطيـع أن نقول لبعضهـم: كان الأنبياء يعدّون البحث في هذا الموضوع أمـراً واجباً؛ لأنّه لا يؤمن بنبــيّ أساساً. إذن السبيل الوحيد لذلك هو الإفادة من قوّة العقل، فالعقل هو الذي ينبغي أن يحكم بوجوب البحث من أجل معرفة الله. يقول المتكلّمون في هذا الصدد: «إنّ أهمّ دليل عقليّ على وجوب معرفة الله سبحانه هو وجوب شكر المُنعِم». فالعقل يقول: «يتعيّن أن تعرفَ الذي أغدق عليك نعماً جمّـة، لأنّــه من الضروريّ أن تشكر مَــن أنعم عليك». بمعنى أنّهم يعتبرون هــذا الدليل أكثر الأمور التي تُلزِم الإنسان بالسعي لمعرفة الله بديهيّةً. إذن فمسألة الشكر هي على هذا القدر من الأهمّية.

ومـع ذلك نرى أنّ الحافـز الذي يدفع الناس إلى الشكر ضعيف. فلمــاذا لا نُقدِّر النعم العظيمة التـي أسبغهـا الله علينا حقّ قدرهـا؟ ولماذا ينعدم الدافـع إلى الشكر لدينا؟ كم مـرّة طوال اليوم والليلة نتذكّر أنّه ينبغي علينا أن نشكر الله عزّ وجلّ؟

طريقة الإمام الباقر عليه السلام لإيجاد الدافع للشكر

فـي هذه الرواية يُقدّم الإمام عليه السلام لجابر طريقــة لإيجاد الدافع إلى الشكر عند الإنسان. فهو يشير في حديثه هنا إلى أنّ علّة شحّة شكرنا هي عدم التفاتنا إلى آلاء الله وأنعمه علينا بشكل جيّد. فنحــن نتدلّـل - بعض الشيء - علـى الله سبحانه، ونرى أنفسنا مستحقّيــن وأصحاب حقّ، ونتوقّع منــه عزّ وجلّ أن يمــنّ علينا بأكثر بكثير ممّا أسبغ علينا إلى الآن من النعــم. بل إنّنا أحياناً، وجرّاء وجــود بعض النقائص، لا نُعرِضـ عن الشكر فحسب، بل تتولّد لدينا حالــة الشكوى والتذمّر أيضاً. إذن يتحتّم علينا أن نبذل غاية المجهود لمعرفة النعم الإلهيّة حقّ المعرفة وأن نفكّر حتّى بنعم الله الصغيــرة علينا ونُدرك أهمّيتها. فلا ينبغي استقلال رزق الباري عزّ وجلّ واستكثار أعمالنا. فنحن معاشــر البشــر نأمل عادةً أن نحوز على ما عند أكثر بني البشر تنعّماً، ونُعاتب الله جلّ وعلا على أن أعطــى لفــلان نعمةً ولم يُعطني إيّاها. أمّا من جانب آخــر فنحن نرى أنّ الأعمال التي نُنجزها نحن جبّــارة وقيّمــة، ونُحدّث أنفسنا بأنّنا نُصلّي ونصوم ونؤدّي مــا أوجبه الله علينا من تكاليف، فما هو المطلوب منّا ونحن نأتي بكل هذه العبادات ؟!

عليك أن تَعُدّ كافّة آلاء الله عظيمة

إذن المشكلــة التــي نُعاني منها يكمن في هاتين النقطتين؛ أننــا من جهة نرى أنفسنا مستحقين وأصحــاب حقّ، ومــن جهة ثانية نُعظّم أعمالنا ونراها غير ناقصــة. وعلينا هنا كسر هذه المعادلة.

فمـن ناحيـة يتحتّم علينا التفكير بنعم الله الصغيرة ؛ فينبغي لنا – مثلاً – التفكير بما هيّئه الباري عزّ وجلّ من كمّ هائل من الأسباب والوسائل كي يوفّر لنا رغيف خبز واحد. فكما يقول الشاعر:

سُحبٌ، رياحٌ، وأفلاكٌ، وشمسُ ضحىً تعاضدنَ في جلب الرغيف، وتَغفلُ؟!(1)

فلقد وظّف الله سبحانه وتعالى جميع نعم الكون كي تحصل أنت على الرغيف ولا تنتابك الغفلة، وكذلك الحال مع سائر النعم الإلهيّة. فالغفلة – مع بالغ الأسف – تحول دون إدراك المرء لعظمة آلاء الله عزّ وجلّ. فكم قد أسبغ الله علينا من النعم من أجل عمليّة النطق البسيطة؟

فلكي يتفوّه الإنسان ببضع كلمات لا بدّ أن يعمل الجهاز التنفّسي بشكل صحيح في سحب الهواء ودفعه، وينبغي أن يكون للمرء حنجرة وأوتار صوتيّة سالمة، ويجب أن يؤدّي كلّ من اللسان والأسنان والفم وظائفه على النحو الصحيح، وإلاّ فلن نستطيع مهما بذلنا من جهد أن ننطق بكلمة واحدة. في أحد الاجتماعات نقل قائد الثورة المعظّم (حفظه الله) أنّ طبيباً قال له: «أتعلم أنّه لا بدّ أن تتظافر جهود بضعة مليارات من خلايا جسم الإنسان من أجل تحريك إصبع واحد من أصابع يده؟ ولولا هذا التعاون والتنسيق في العمل لا يمكن لهذا الإصبع أن يتحرّك». فهل فكّرنا إلى الآن كم هي نعمة عظيمة أن نكون قادرين على تحريك إصبع من أصابعنا؟ لذا ننصح الإخوة من الشباب أن تكون لهم بعض المطالعات في علم الفسلجة البشريّة وعلم الأحياء، فهي تعلّم الإنسان الكثير.

المحبوبون عند الله تعالى

على أيّة حال فمن أجل أن يتولّد في أنفسنا دافع إلى الشكر، فنشكر الله شكراً يوصلنا إلى كمال الإنسانيّة ويجعلنا من المحبوبين عند الله جلّ وعلا، فإنّ علينا القيام بأمرين:

1. الوقوف على نعم الله:

علينا أن نحاول جهدنا الوقوف على أنعم الله ونعرفها حقّ معرفتها ونستعظمها. فلا نكوننّ ممّن لا تملأ عيونهم سوى القصور الفارهة وما يُعدّ للطواغيت وفراعنة العصر من شتّى صنوف الطعام والشراب، ولا نرى للطعام الذي نتناوله نحن مقداراً يستحقّ عليه الشكر. فإن أحببنا أن يتولّد في أنفسنا حافزٌ إلى شكر المولى المتعال فيتعيّن أن نُطيل التفكير حتّى في نعم الله الطفيفة علينا والوقوف على أهمّيتها بالنسبة لنا. على أنّ ما ذكرناه لا يتعدّى نطاق النعم الطبيعيّة التي يتنعّم بها

---

(1) ترجمة شعريّة لبيت بالفارسيّة للشاعر الإيرانيّ سعدي الشيرازيّ يقول فيه: «ابر و باد و مه و خورشید و فلك در كارند تا تونانى به كف آرى و به غفلت نخورى».

المؤمن والكافر على حدّ سواء، فما بالكم بنعمة العقل، ونعمة هداية الأنبياء، ونعمة معرفة الإسلام، ونعمة ولاية أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام؟ فما كنّا لنصنع لو لم توجد هذه النعم؟

إذن هل من اللائق، مع وجود كلّ هذه الآلاء والنعم، أن نشتكي ونُعاتب الله على بعض النقائص؟! إنّ عملاً كهذا يُسقط الإنسان من أريكة القيم الإنسانيّة. بالطبع إنّ الله عزّ وجلّ يصفح عن الكثير من هذه الأنماط من الكفران وعدم الشكر، لعلمه بضعفنا، أمّا فيما يتعلّق بأولياء الله فإنّهم يُحاسَبون حتّى على صغائر الزلاّت والعثرات ويشاهدون تبعاتها على الفور.

2. استقلال العبادة دائماً:

من ناحية أخرى ومن أجل إيجاد هذا الدافع، علينا أن نرى عباداتنا غاية في الضآلة وقلّة المقدار. بالطبع هذا الأمر أيضاً يحتاج إلى خطّة خاصّة؛ فكيف لي وقد صُمت لثلاثين يوماً أن اعتبر عملي هذا عديم القيمة؟! وعلى فرض أنّنا نؤدّي صلاة الليل طوال العام، فكيف يتسنّى لنا أن نعدّ هذه العبادة قليلة؟

الاستقلال والاستكثار هنا أمر نسبيّ؛ بمعنى أنّ المقدار المطلق للشيء ثابت في كلّ حال، لكنّنا عندما نُقارنه بغيره نقول: إنّه قليل أو كثير. فإنّك إذا أردت شراء سلعة قيمتها ألف دينار فدفعت للبائع ثمانمائة دينار فقط، سيقول لك على الفور: هذا قليل؛ ومعناه: إن ما دفعته ثمناً لهذه السلعة هو قليل بالقياس إلى القيمة الحقيقيّة لها، لا أنّ الثمانمائة دينار قليلة بذاتها. فإن علمنا كم أنّ الله سبحانه وتعالى متفضّل علينا، فإنّنا سنعتبر عباداتنا قليلة حتّى وإن قضينا العمر بأكمله في عبادته.

عندما عوتب الإمام زين العابدين عليه السلام على كثرة عبادته وبكائه بين يدي الله مع أنّ الله قد جعله في عداد المعصومين، قال عليه السلام: «**من يقدر على عبادة عليّ بن أبي طالب** عليه السلام»[1]؛ فقد استقلّ عبادته عندما قاسها بعبادة جدّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

فمن أجل أن نستقلّ عباداتنا فما علينا إلاّ أن نقيسها بطاعة عباد الله الصالحين المخلَصين من حيث الكمّ والكيف وعندها سنخجل من أنفسنا. فلو أراد المرء أن يُقدّم فاكهة لأحدهم كهديّة فهل سيقدّمها بكلّ راحة بال ومن دون أدنى خجل إذا كان ما يقرب من تسعين بالمائة من هذه الفاكهة فاسداً ومتعفّناً؟ فإذا كنّا لا نلتفت إلاّ إلى عشرة بالمائة من صلواتنا فهي كالهديّة التي فسد تسعون بالمائة منها، ألا ينبغي لنا والحال هذه أن نُقدّمها بين يدي الباري عزّ وجلّ بمنتهى الخجل والحياء؟!

(1) شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام، ص305، شرح السيد علي القبانجي، طبع ونشر مؤسسة اسماعيليان – قم، ط 2، 1406هـ.

إذن فمــن أجل إيجاد الدافع إلى الشكـر أوّلاً، وبغية التمكّن من تأدية شكر الله تعالى ثانياً علينا من جانب أن نُطيل التفكير والتأمّل بأهمّية وكثرة ما يغدق علينا تعالى من رزق ونعم جمّة، ولا بدّ من جانب آخر أن نَعدّ ما نأتي به من العبادات قليلاً وناقصاً.

روحية استكثار النعمة

ومــن هــذا المنطلق يقــول الإمام الباقر عليه السلام: «**يـا جابر! استكثـر لنفسك مـن الله قليل الرزق تخلّصـاً إلـى الشكر، واستقلل من نفسـك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرُّضاً للعفو**»[1]؛ أي: استكثر ما يُعطيك الله تعالى من رزق قليل. ولا يعني هذا أن تعدّ رغيف الخبز الواحد مائة رغيف! فهذا الـكلام يدعـو إلى السخريـة. فقوله: «**استكثـر**» يعني: انظر كم أسبغ الله عليك مـن النعم على الرغم مـن عدم استحقاقك وشحّـة نفسك. «**وَاسْتَقْلِلْ مِـنْ نَفْسِكَ كَثِيـرَ الطَّاعَـةِ للهِ إِزْرَاءً عَلَـى النَّفْسِ**»[2]؛ ومــن ناحيــة أخرى استقلل ما تؤدّيه من العبادة والطاعة! فأيّ قيمــة ومقدار لهذه العبادة في مقابل ما أغدقه الله عليك من عظيم النعم، وما يؤدّيه أولياؤه بين يديه من جسيم الطاعة. فلنقارن آلاء الباري علينــا بعدم أهليّتنا وكثرة معاصينا كي نراها جسيمة ضخمة؛ ولنستقلل عباداتنا من الناحية الأخرى؛ ذلــك أنّ النفس تُحبّ أن يكون لها شأن ومنزلة وعلينــا مقارعتها وقمعها. يقول إمامنا عليه السلام في هذا الصــدد: «**مـن أجل قمع أنفسكم قولوا لهـا: هذه العبادات لا قيمة لها**»؛ ذلــك أنّ مقدارها بالقياس لطاعـات أولياء الله قليـل أوّلاً، ولا يعلم أنّها ستقبل أم لا ثانياً. إنّه ليتعيّن الاستغفار من العبادة المأتيّ بها من دون حضور قلب فما بالكم بأن نوليها أهمّية ونعطيها قيمة!

هــذه الطريقة هــي السبيل الذي يمكننا بسلوكـه أن نحظى بالدافع إلى الشكـر ونكون في عداد الشاكرين: «**تخلُّصاً إلى الشكر**»، وأن نتغلّب على النفس، ولا ندعها تنتصر علينا وتصرعنا.

الشكر يزيد من النعم

الله عــزّ وجـلّ، ولكي يحثّنا على الشكـر وجني جزيل ثماره وعظيم نتائجــه، فقد اعتمد أساليب أخـرى من جملتهــا الوعد بزيادة الرزق عند الشكر، والإنذار -فـي المقابل- بزوال النعمة في حال عدمــه. فهو يشير فــي ختام العبارة المذكورة أيضــاً إلى نقطتين مهمّتيــن: «واستجلب زيادة النعم بعظيــم الشكر»؛ أي: إذا شئت نيـل المزيد من النعم فأكثِر من الشكر، وليكـن شكراً عظيماً أيضاً.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 163.

(2) أزرى على النفس: عابها وعاتبها. ويحتمل أن يكون: ازدراء - من باب الافتعال - أي احتقاراً واستخفافاً.

ومـن أجـل أن تُوفَّق إلى تأدية عظيم الشكر عليك أن تُفكّر في أنّك إن لم تشكر فستزول منك النعم. وهـذان العاملان يُعَـدّان من أكبر العناصر المحفّـزة للإنسان؛ فكلّ امرئ يسعـى لنيل المزيد من النعـم، وهذا يدلّنا على أنّ الازدياد في النعم هو من الأمور التي تحظى بقيمة عظمى لدى الإنسان. وعلى العكس، فإنّ شحّة النعم يُعتبر بلاء عظيماً له. إذن فالالتفات إلى هاتين النقطتين يحثّنا على شكر الله تعالى بما يستحقّه من الشكر. وبالطبع فإنّ الله ليس بحاجة لشكرنا، وإنّ سرّ إصراره على هذه المسألة هو رغبته جلّ وعلا في أن ينالنا نحن النفعُ من ذلك[1].

من لم يشكر الناس لم يشكر الله

مـن المعلـوم أن من أعظم الأعمال التي يشكر به العبد ربّه سبحانـه وتعالى عند تجدّد النعم أو اندفاع النقم أن يخرّ لله ساجداً، فيضع أشرف عضو من أعضاء جسده – وهو الوجه- على التراب وينكس جوارحـه خاضعاً متذلّلاً لله تعالى شاكراً له على هذه النعـم، ويذكره في هذا السجود وهو علـى هذه الحال بأنـواع الذكر من الشكر والمحامد والاستغفار وغيرها، فيكون العبد قد عمل عملاً شكـر به المنعم جـل وعلا من خلال هذا السجـود وأشغل قلبه ولسانه وجوارحـه بذكر المنعِم جلّ شأنه.

قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[2] لأن المتلفّظين بالحمد كثيرون، والعاملين بالشكر قليلون، فـإنّ الله تعالى يقـول: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[3] ويقول سبحانـه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[4]، واعلموا أيّهـا الأحبّـة أنّ الله تعالى لمّا جعل الشكر من عباده أساسَ عبادتـه المباشرة، جعل أيضاً شكرهم لبعضهـم عبادة له تزيد من أجرهم، فقد أمـر سبحانه العبد أن يشكر لوالديه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[5] فشكر الله عبادته، وشكرُ الوالدين برُّهما، بل فاض أمر الشكر حتى زاد عن الوالدين إلى التعامل مع كل الناس، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[6].

وروي عـن إمامنا الرّضا عليه السلام أنه قال: «**من لـم يشكر المنعِم من المخلوقين، لم يشكر الله**

---

(1) من محاضرة سماحة آية الله مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 8 آب 2011م. بتصرف.

(2) سورة سبأ، الآية 13.

(3) سورة سبأ، الآية 13

(4) سورة الملك، الآية 23.

(5) سورة لقمان، الآية 14.

(6) سنن الترمذي، ج 3، ص 228، تحقيق وتصحيح عبد الرحمن محمد عثمان، نشر دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان، ط 2، 1983م.

عـزَّ وجـلّ»[1] وشكر الناس أن تُقابل إحسانهم بمثله، إن كان قولة أو فعلة، لأن مبدأ الشكر الاعتراف بالفضـل لأهلـه، فـإن وجد ذلك كان لله ثم لعبـاده، وإن عُدِم فليس لله ولا لعبـاده، ومعلوم من غير توضيح أن شكر الوالدين وشكر الناس جزء من شكره سبحانه وحده.

أئمة الشكر

إنّ المتأمِّل في آيات القرآن الكريم يجد أنّ الله تعالى صرّح بالثناء على صفوة خلقه أولي العزم مـن الرسل عليهم السلام بأنّهم كانوا مـن الشاكرين، فوصف نبيه نوحاً عليه السلام بأنّه ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[2]. ونعـت خليله إبراهيم عليه السلام بأنّـه كان: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[3]. وقال لكلٍّ من الكليم موسى والمصطفى محمد صلوات الله عليهما: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[4]، وقد كانا.

وهـذا النبـي الشاكر، والأوّاب الذاكـر: سليمان بـن داود عليهما السلام، والذي حفظ القـرآن له أكثر مـن موقـف عبّر فيه عن شكـره لنعم ربّه، وبيّـن أنّ فرحة اكتمـال النعمة، وتمام الأمنيـة لم تُلهيه عـن اللهـج بالاعتراف بها لمسديهـا، وشكره عليهـا، استوقفته تلـك النملة حين نذارتهـا لقومها: ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[5].. تأمّـل كيف لم تشغله تلك النعمـة عن التوجّه إلى من أنعم عليه بها، بل حرّك فيه هـذا المشهد الرغبة في الشكر لمستحقّه، فهو الـذي علّمه ما علّمه، ويتكرّر مشهد الشكر عند هذا النبـي الكريم، لمّا رأى عرش بلقيس مستقرّاً عنـده. فيقول: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[6].

إنّـه حـال الشاكرين، فسليمان. عليه الصـلاة والسلام. لم تشغله – هـذه الآية العظيمة، وهي: حضور عرش بلقيس بسرعةٍ هي أقل من طرفة العين– عن شكر من أنعم عليه بذلك، بل لهج بالثناء والحمـد لله تعالى. فإذا كان هذا حـال أنبياء الله تعالى ورسله، فغيرهم أحوج إلى أن يكون. الحمد والشكر لله. شعاراً لهم ودثاراً، فإنّ الأمر كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**النعمة موصولة**

---

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 16، ص 285 – 315.

(2) سورة الإسراء، الآية 3.

(3) سورة النحل، الآية 121.

(4) سورة الأعراف، الآية 144.

(5) سورة النمل، الآيتان 18 و 19.

(6) سورة النمل، الآية 40.

بالشكر، والشكر موصول بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله سبحانه حتى ينقطع الشكر من الشاكر»[1].

وفي مقدمة الشاكرين وإمامهم، سيد البشر محمد ﷺ، وذلك لأنه أتقى الخلق، وأعرفهم بحقّ خالقه، وأشكرهم له. ويظهر ذلك جليًا من خلال النظر في حاله وسيرته مع أهل بيته عليهم السلام، وأزواجه وأصحابه، وعامة من رآه أو أتاه.

روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه، عن آبائه، عن الحسين بن علي عليه السلام: - في حادثة طويلة ومفصَّلة - عن أمير المؤمنين عليه السلام في فضل رسول الله ﷺ: **«إنه كان إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره وجوفه أزيز كأزيز المرجل على الأثافي من شدّة البكاء، وقد أمنه الله عزّ وجلّ من عقابه، فأراد أن يتخشّع لربّه ببكائه، ويكون إماماً لمن اقتدى به، ولقد قام عليه وآله السلام عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه، يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عزّ وجلّ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾**[2]**. بل لتسعد به، ولقد كان يبكي حتى يغشى عليه، فقيل له: يا رسول الله أليس الله عزّ وجلّ قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ قال: بلى أفلا أكون عبداً شكوراً»**[3].

لو كلُّ جارحةٍ منّي لها لغةٌ ... تُثْني عليك بما أولَيْتَ من حَسَنِ

لكان ما زاد شُكْري إذْ شَكَرْتُ به ... إليك أبلغَ في الإحسانِ والْمِنَنِ

أما الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فإنّهم هم الذين سيشكرون من ربّهم في الآخرة بالأجر الذي سيظلّون أبداً يحمدونه من أجله. عندما يقول لهم سبحانه بعد أن يستقرّوا في نعيمهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾[4]. ويستأنف الشكر لهم من الله بسخاء عطائه جلّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴾[5]. جعلنا الله وإياكم من السائرين بركبهم في الدنيا والآخرة، ومن الذين يقرنون الشكر بالعمل كما أمروا عليهم السلام، وفّقنا الله وإيّاكم لأن نكون من الشاكرين، فلعلّنا برحمته نكون يوم القيامة من الحامدين.

---

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص 370.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 17، ص 287.

(3) سورة طه، الآيتان 1 و 2.

(4) سورة الإنسان، الآية 22.

(5) سورة فاطر، الآيتان 34 و 35.

للعلم طالبون

نـص الـوصـيّـة

روي عن الإمـام الباقر عليه السلام في وصية لتلميذه وصاحبه جابـر: «**وَادْفَعْ عَنْ نَفْسكَ حَاضرَ الشَّرِّ بِحَاضر العِلْم، وَاسْتَعْمِلْ حَاضرَ العِلْمِ بِخَالِصِ العَمَلِ، وَتَحرَّزْ فِي خَالصِ العَمَلِ مِنْ عَظِيمِ الغَفْلَةِ بِشِدَّةِ التَّيَقُّظِ، وَاسْتَجْلِبْ شِدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الخَوْفِ**»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 163.

المحاور:

- مقدّمة.
- فضل أهل العلم.
- العلم لمن علم ثم عمل.
- خطّة للعمل بالعلم.
- الغفلة آفة الإخلاص.
- كيف نقوّي دعائم اليقظة في نفوسنا؟
- احذر: فقدان الخوف الصادق من الله.
- واتقوا الله ويُعلِّمكم الله.

مقدّمة

ما أمر الله تعالى نبيّه الخاتم ورسوله الأعظم ﷺ بطلب الزيادة من شيء في هذه الدنيا، إلا من العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]. وكان من نتاج علم الله الذي علّمه مصطفاه أن خاطب الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾[2]. فالذكر في هذه الآية المباركة هو رسول الله ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]. ووصف مولانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الأئمة الطاهرين من آل محمد ﷺ، فقال: «**هم عيش العلم وموت الجهل، يُخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية. لا عقل سماع ورواية، فإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل**»[4]. هؤلاء أئمّتنا الكرام عليهم السلام أبرار عترة المصطفى ﷺ وأطائب أرومته، أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً.

فَتَشَبَّهوا إن لَم تَكُونوا مِثلَهُم   إنَّ التَّشَبُّه بِالكِرامِ فَلاحُ.

فضل أهل العلم

لقد أشاد الله سبحانه وتعالى – أيّما إشادة – بفضل أهل العلم، ورفع من شأنهم، وأعلى من قدرهم، بما يعجز عن بيانه إلا الفرقان المبين، فقال الله تعالى في محكم آياته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(1) سورة طه، الآية 114.

(2) سورة الطلاق، الآيتان 10 و 11.

(3) سورة النحل، الآية 43.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 391.

(5) سورة فاطر، الآية 28.

(6) سورة المجادلة، الآية 11.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[2].

روى أبو بصير: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: يا طالب العلم إنّ العلم ذو فضائل كثيرة: فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقرّه النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه الرضا، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه محبّة الأخيار**»[3].

خطّة للعمل بالعلم

يتابع الإمام الباقر عليه السلام وصيّته لجابر فيقول: «**وَادْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ حَاضِرَ الشَّرِّ بِحَاضِرِ الْعِلْمِ، وَاسْتَعْمِلْ حَاضِرَ الْعِلْمِ بِخَالِصِ الْعَمَلِ، وَتَحَرَّزْ فِي خَالِصِ الْعَمَلِ مِنْ عَظِيمِ الْغَفْلَةِ بِشِدَّةِ التَّيَقُّظِ، وَاسْتَجْلِبْ شِدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الْخَوْفِ**»[4].

الإمام عليه السلام يُركّز في هذه الوصايا الأخيرة على نقطة جوهريّة وهي: أنّك إذا استثمرت ما هو بحوزتك في الوقت الحاضر فستحصل على النتيجة المطلوبة؛ فإنّ خفتَ من أن يُصيبك شرّ فاستخدم ما في جعبتك من علم؛ أي حاول أن تحسن العمل بما تعلم. فعمل الإنسان عن رياء وعُجب وتظاهر وما إلى ذلك ليس هو عملاً بما يعلم، بل هو عمل مخالف للعلم؛ ذلك أنّ العلم يقول له: لا بدّ أن يكون عملك خالصاً. ومن أجل أن تكون قادراً على الإخلاص في عملك فاسْعَ أن تكون يقظاً تمام اليقظة في جوف الليل، وأن تتجنّب الغفلة لأنّ الغفلة تقود إلى الرياء في العمل. وبغية الحفاظ على حالة اليقظة فإنّ عليك أن تجتهد في أن يكون خوفك خوفاً صادقاً.

وقد خاطب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام طلبة العلم محذّراً لهم: «**يا حملة العلم أتحملونه فإنما العلم لمن علم ثم عمل ووافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم تُخالف سريرتهم علانيتهم، ويُخالف عملهم علمهم يقعدون حلقاً، فيُباهي بعضهم بعضاً حتى إنّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله سبحانه**»[5].

---

(1) سورة آل عمران، الآية 18.

(2) سورة الزمر، الآية 9.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 391.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 163.

(5) ابن ابي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 5936.

لأنّ المهـام الملقـاة على عاتق طلبة العلم مهـام عظيمة ويناط بهم مسؤوليـات جليلة كان هذا التحذير من أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولأن طلب العلم جمع الله فيه بين الفضلين: فضله على النفس وفضلـه للغيـر، ولذلك فإنّ طلب العلم أفضل من صنائع المعروف لأنّـه أشرفها وأعظمها وأعلاها، وأجزلها ثواباً عند الله تعالى؛ فأعظم المعروف أن تأخذ بحجز القلوب عن النار، وأعظم المعروف أن تُقـرِّب العبـاد إلى رحمة الله، فأبشر بخير ما أنـت فيه من طلب العلم، ففيه خير كثير إذا اقترن بالعمـل. قال باب مدينة العلم وكهـف الحلم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**اطلبوا العلم تُعرفوا بـه، واعملوا به تكونوا من أهله**»[1]. وقال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**من عمل بما علم كفي ما لم يعلم**»[2].

اغتنم ما تعلم!

نحـن غالباً ما نسعـى إلى اكتشاف السبيل التـي تؤمّن لنا سعادتنا وكمالنـا، ونظنّ أنّ اكتشاف سبيل كهذه هو بمثابة وصفة سحريّة وسرّ خفيّ علينا التجوال في أقطار العالم وأكنافه كي نعثر على خبيـر يعرف كيف يُحرّر لنا هذه الوصفـة الفريدة. لكنّ تفكيرنا بهذه الطريقة يدفعنا إلى التقاعس عن التوجّه نحو قمّة الكمال والقناعة بما أصبناه وما هو متوفّر بأيدينا. فهمّة المرء تقضي في بداية الطريـق أن ينـال المقامات العالية، لكنّه عندمـا يشاهد أنّ الأمر ليس بالسهولـة التي يتصوّر فإنّه يتراجع شيئاً فشيئاً حتّى يصرف نظره عن الأمر كلّياً.

ومـن أجل إلغاء هـذا النمط من التفكير سعت الروايات إلى التأكيـد على عدم تكثيف المساعي فـي كثـرة طلب العلم؛ بل أن يُركّز الإنسان سعيه في العمل بالمقدار الذي لديه من علم. يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فـي هـذا المجال: «**مَن عمل بما يعلم وَرّثه الله علمَ ما لم يعلـم**»[3]، إذن فالمهمّ هو أن يستفيـد المـرء ممّا بحوزته من العلم قبل أن يذهب إلى طلب غيره. بالطبع إنّ المراد من العلم هنا هو العلوم التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأعمال العباديّة وطاعة الله عزّ وجلّ.

فنحـن نُحبّ أن نعلم كلّ شيء؛ نـودّ أن نعلم كيف وصل الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأوليـاء الله المقرّبون إلى مـا وصلـوا اليه من مقامات عالية؟ وما هي سلسلة المقامات والسبيـل الموصلة إليه؟ فهذا هو حبّ الاستطـلاع الذي غرسه الله تعالى في قلوب البشر وهو عامل مهمّ في دفع الإنسان إلى طلب العلم. لكنّ الأفضل من ذلك هو أن يعمل المرء بما تعلّمه. فشكر العلم يكون في العمل به. ألسنا نرغب في

---

(1) علـي بـن محمة الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص92، تحقيق الشيـخ حسين الحسيني البيرجندي، نشر وطبع دار الحديث، ط1.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 163 – 182.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 40، ص 128.

أن نقوم بما يجعلنا نشكر اللّه شكراً عظيماً كي يزيدنا من نعمه؟ فهذه الالتفاتة تُمثّل بحدّ ذاتها علماً من العلوم وإنّ شكرها يكون في العمل بموجبها.

الغفلة آفة الإخلاص

لكن كيف السبيل إلى إخلاص العمل؟ فلو وقف العبد وحيداً في مسجد أو صحراء يعبد ربّه من دون أن يـراه أحـد لما وجد فـي نفسه ما يُحرّضه على الرياء، فالدافع للريـاء لا يتولّد لدى المرء إلاّ إذا علم بـأنّ شخصـاً يراقب عملـه؛ لأنّ «الرياء» يعني إظهـار العمل للآخرين. فإذا تولّد فـي نفس المرء حافز على الرياء فستراه يُحدّث نفسه: «إذا قمت بعملي بالكيفيّة التي تُرضي فلاناً من الناس فإنّني سأحظى بمكانـة مرموقة عنده وأقطف ثمار هذه المكانـة. إذن من الأفضل أن أُصلّي صلاة لائقة أمامه»! غافلاً عن أنّ هذه النيّة تُبطل صلاته؛ فلقد أغفَلَ ربّه إرضاءً للناس، وهذا من موجبات سخط الباري عزّ وجلّ.

إنّ مـا يوجب خروج العمل عن حالة الإخلاص هـو الغفلة عن مقام المعبود ولوازم ذلك المقام. فأوّل أثر للنيّة المشوبة هو ذهاب العبادة، بل وقد يُسجَّل له ذنب في صحيفة أعماله أيضاً. إذن فمن أجل أن يُصبح عملنا خالصاً يتعيّن علينا المحافظة على هذه اليقظة حتّى لا تعرض الغفلة علينا.

ومن أجل حفظ هذه اليقظة فإنّ علينا الالتفات دوماً إلى هذه النقطة وهي: مَن هو الذي نتعامل معـه؟ يجـب أن نتنبّـه باستمرار إلى أنّ تعاملنا هـو مع اللّه سبحانه، وأنّ خلقـه لا يقدرون على فعل أيّ شيء لنا: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾[1]، إذن فمـا الذي يدفعني إلـى التفكير بالناس والتظاهـر أمامهم بالعبادة والزهد والتقـوى؟! ينبغي لهذه القضيّـة أن تكـون حاضرة فـي أذهاننا دائماً. بالطبع إنّـه عمل شاقّ ويحتاج إلـى تمرين متواصل، ونـادراً مـا يُكلّل بالنجـاح، فمشاغل الدنيا تجرّ الإنسـان إلى الغفلة بين الفينة والأخـرى. لكنّنا إذا تمكنّا من تقوية الخوف من اللّه في نفوسنا وجعله خوفاً صادقاً فإنّنا سننجو من الرياء والغفلة.

كيف نقوّي دعائم اليقظة في نفوسنا؟

المشكلـة الأسـاس في الموضوع أنّ خوفنـا من اللّه لا يتّصف بالعمق، فهـو لا يتعدّى كونه ادّعاءً سطحيّـاً. فعندمـا يكون خوف المرء من أمر مّا جدّياً تراه يتوخّى الحـذر الشديد لئلاّ يُبتلى به. فلو قيـل: هنـاك فـي الطريق سلك كهربائيّ مجرّد من غلافه ملقىً علـى الأرض وهو موصول بالكهرباء ومن وَطَأه سيُصعَق، فسوف يتّخذ الجميع جانب الحيطة والحذر حتّى وإن كان احتمال كونه مكهرباً

(1) سورة يونس، الآية 107.

واحداً بالمائة فقط، حذراً من الإصابة بالصعقة الكهربائيّة. فإذا كان المرء يخاف من جهنّم ومن سقوطه من عين الله تعالى بقدر خوفه من سلك الكهرباء فسوف يكون يقظاً باستمرار كي لا يأتي بما يثير غضب الباري جلّ وعلا وسخطه عليه.

يقول الإمام عليه السلام: إذا أردت المحافظة على هذه اليقظة في سبيل عدم الابتلاء بالرياء والتحايل وطلب السمعة وكلّ ما يبطل العبادة فلا بدّ أن يكون خوفك خوفاً صادقاً.

وهنا يتبادر السؤال التالي إلى الذهن: كيف نجعل خوفنا صادقاً؟ وللإجابة على هذا السؤال يتعيّن الالتفات إلى قضيّة أنّه من أجل القيام بأيّ فعل فإنّنا نحن مَن ينبغي أن يُقرّر القيام به، ومن ثمّ نُقدِم عليه بإرادتنا بعد التفكير والتأمّل. فإنّ عرْضَ خطّة للطريق لا يعني أنّ العمل سيُنجَز وينتهي كلّ شيء، بل إنّ تقديم الخطّة هو من أجل الإرشاد إلى الطريق الصحيح وتبيين مراحله كي يتمكّن المرء من التقدّم إلى المرحلة التالية بسهولة أكبر، أمّا الذي يتّخذ القرار ويُقدِم على العمل للحصول على نتائجه فهو الإنسان نفسه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1].

1. تقوية عامل الخوف من الله:

فمن أجل صيانة هذه اليقظة علينا تقوية الخوف في أنفسنا، وإطالة التفكير في كلام الله تعالى وفي أنّه: هل هذه الصورة التي ترسمها الآيات القرآنيّة عن عاقبة أهل المعصية جدّية؟ فابن آدم دائماً يُرجّح دفع الضرر على استجلاب النفع. فلو دار الأمر بين أن يدفع عن نفسه مرضاً عضالاً وبين أن يحظى بجسم رشيق وجميل فهو سيرجّح دفع الضرر. فدفع الضرر هو من أهمّ العوامل المؤثّرة في أفعالنا الاختياريّة. وحتّى القرآن الكريم فإنّه يختار لأنبياء الله تعالى صفة المنذرين؛ حينما يقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[2] أو: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾[3]. فصحيح أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا مبشّرين ومنذرين في آن معاً، لكنّ صفة «المنذِر» قد أُطلقت عليهم بشكل مطلق، خلافاً لصفة «البشير» فهي لم تكن صفة مطلقة لهم؛ ذلك أنّ تأثير الإنذار في عمل المرء يفوق تأثير أيّ شيء آخر. طبعاً قد يُقدم الإنسان على تعريض نفسه لضرر بسيط من أجل خير ونفع أعظم، لكنّه إذا تساوى عنده الضرر والنفع فإنّه يُفضّل دفع الضرر على جلب النفع. ولا يتحقّق دفع الضرر إلّا إذا خاف المرء من شيء مّا وعندها فقط سيسعى إلى دفع ضرره عنه، فإن لم يشعر بالخوف منه فإنّه لا يحاول دفع ضرره؛ فلو لم يخش الإنسان المرضَ فإنّه لن يُراعي لوازم الصحّة والسلامة وسوف يُبتلى بالمرض لا محالة.

---

(1) سورة النجم، الآية 39.

(2) سورة الزمر، الآية 71.

(3) سورة غافر، الآية 15.

2. التفكُّر في عواقب الأمور:

الخطـوة الأولى كمـا ذكرنا تكمن فـي السعي لتحصيل الخـوف الصادق. أمّـا السبيل إلى هذا الخـوف فهـو التفكّر فـي كلمات القرآن الكريـم وتعابير الروايـات الشريفة التي تُذكِّـر بما للذنوب والسلوكيّـات المنحرفة من تبعات سوء، ومحاولة تجسيد هذه التبعات أمام أنظارنا ولو قليلاً. فهذا النمـط من الخوف يبعث علـى تيقّظ الإنسان وعدم غفلته، وإنّ عدم الغفلة يدفعه إلى الإخلاص في عملـه، والإنسان المخلص يستفيد من علمه على نحو أفضل ويؤدّي شكر هذا العلم، وحينئذ سيزيد الله فـي علمـه، وهكذا تتواصل هذه السلسلـة؛ بمعنى أنّه: كلّما عمل بما لديه مـن المعلومات ازداد علمه. وإنّ العلم الأكثر يقتضي عملاً أكثر وأفضل، وهكذا تستمرّ هذه العجلة في الدوران حتّى يصل المرء إلى مقامات القرب من الله عزّ وجلّ.

ومـن هذا المنطلق يقـول الإمام أبو جعفـر عليه السلام: «**وَادْفَعْ عَـنْ نَفْسِـكَ حَاضِرَ الشَّـرِّ بِحَاضِرِ الْعِلْـمِ، وَاسْتَعْمِـلْ حَاضِرَ الْعِلْمِ بِخَالِصِ الْعَمَلِ، وَتَحَرَّزْ فِي خَالِصِ الْعَمَلِ مِنْ عَظِيمِ الْغَفْلَةِ بِشِدَّةِ التَّيَقُّـظِ، وَاسْتَجْلِبْ شِـدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الْخَوْفِ**»[1]. ولعـلّ التأكيد هنا على كلمة «**حاضر**» هو من أجـل أن لا يظنّ الإنسان أنّ عليه الجدّ والمثابرة لسنوات طوال من أجل طلب العلم وعند ذاك فقط يمكنه العمل بهذا العلم، بل إنّه إذا استفاد من نفس هذا العلم الذي بحوزته في الوقت الحاضر فإنّه سيدفع الشرّ عنه.

وعليه: فإنّ الإفادة من العلم هي أن تعمل به بكلّ إخلاص، وإنّ ما يبعث على تبدّد الإخلاص هي الغفلـة. فبغية صيانة النفس من الغفلة ينبغي للمرء الاجتهـاد في أن يكون في حالة يقظة تامّة، أمّا المفتـاح لهذه اليقظة التامّة والمستمرّة، فهو الخوف الصادق. فلابدّ أن تصدّق بما جاء في الآيات والروايـات من ذكر أشكال العذاب كي تستثير هذه اليقظة في نفسك. لكنّك إن لم تحمل هذا الأمر على محمل الجدّ فستصاب بالغفلة وستُبتلى في إثرها بالرياء أيضاً.

احذر: فقدان الخوف الصادق من الله ومن ثمّ يأتي الإمام عليه السلام بعبارة يكتنفها بعض الغموض، الذي قد يكون بسبب خطأ حصل في النسخ، وهي: «**وَاحْذَرْ خَفِيَّ التَّزَيُّنِ**[2] **بِحَاضِرِ الْحَيَاةِ**»[3].

الإمام الباقر عليه السلام يشير هنا استكمالاً لموضوع الخوف الصادق إلى آفة هذا النمط من الخوف. فإنّ من الأمور التي تجعل المرء لا يحمل ألوان الإنذار على محمل الجدّ هي معاشرة محبّي الدنيا. فإنّ

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 163.

(2) وفي بعض النسخ «خفيّ الرين» أي الدنس.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 164.

معاشرة أولئك الذين لا يفتؤون يتحدّثون عن ملذّات الدنيا، وعن صعود أسعار المادّيات ونزولها، وعن الأفلام، وما شابه ذلك ولا ينقطعون عن التفكير في التزيّن بزينة الدنيا وزخارفها هي من العوامل التي تُخلّي قلب الإنسان من الخوف، فلا يصبح بعد ذلك من أولئك الذين تضطرب وترتعش قلوبهم لذكر الله عزّ وجلّ، بل قد يبلغ مرحلة لا يُحبّ معها سماع اسم الباري المتعال! فجملة: «**وَاحْذَرْ خَفِيَّ التَّزَيُّنِ**» تعني: احذر ممّن همّته التزيّن بالحياة الدنيا. فمعاشرة أمثال هؤلاء تبعث على فقدان الخوف الصادق وإزالة التيقّظ من قلب الإنسان، والله العالم. وفّقنا الله وإيّاكم إن شاء الله[1].

واتقوا الله ويعلّمكم الله

يقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[3]. روي عن عنوان البصري - وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة - ذكر أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال له: «**ليس العلم بالتعلُّم، إنّما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه**»[4].

وبهذا يُعلم أنّ العلم ليس هو مجرّد استحضار المعلومات الخاصة، وإن كانت هي العلم في العرف العامي، وإنّما هو النور المذكور الناشئ من ذلك العلم الموجب للبصيرة والخشيه لله تعالى[5]. فالهداية بالإيمان وزيادة الهدى، من قِبَل الله سبحانه، إنّما هما عمل غيبي، وتصرّف إلهي، والتعليم لا ينحصر بالكلمة وبالفعل الذي ترد فيه الاحتمالات فقط. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [6]، وقال عزّ وجلّ: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿..وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[8]، فهنيئاً للعلماء الذين كانوا قدوة بالأفعال مثل ما كانوا قدوة بالأقوال، لأنّ النفوس إلى الاقتداء بالفعال أسرع منها إلى الاقتداء بالقوال.

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها في مكتب سماحة وليّ أمر المسلمين بتاريخ 9 آب 2011م.

(2) سورة محمد، الآية 17.

(3) سورة يونس، الآية 9.

(4) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 1، ص 225.

(5) منية المريد، ج 1، ص 16، تحقيق رضا المختاري، طبع ونشر مكتب الإعلام الإسلامي، ط 1، 1409هـ.

(6) سورة البقرة، الآية 282.

(7) سورة الأنعام، الآية 122.

(8) سورة النور، الآية 40.

للهوى غالبون

نص الوصيّة

عن الإمام الباقر عليه السلام في وصيته لتلميذه وصاحبه جابر: «**وَتَوَقَّ مُجَازَفَةَ الْهَوَى بِدَلالَةِ الْعَقْلِ، وَقِفْ عِنْدَ غَلَبَةِ الْهَوَى بِاسْتِرْشَاءِ الْعِلْمِ، وَاسْتَبْقِ خَالِصَ الأَعْمَالِ لِيَوْمِ الْجَزَاءِ**»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص 163.

المحاور:

- **مقدّمة.**
- **المراد من صراع الإنسان مع نفسه.**
- **الفارق الأساس بين النفس والعقل.**
- **التغلُّب على النفس بتقوية العقل والعلم.**
- **العقيدة الصحيحة أساس الأخلاق الكريمة.**
- **الإخلاص غاية الدين والإيمان.**

مقدّمة

إذا كنّا من أهل المجاهدة والصراع الدائم مع النفس، فإن أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو السؤال التالي: ما الذي يتعيّن علينا فعله في هذا الصراع كي نقلّل من احتمال سقوطنا أرضاً، أو أن لا نُصرع أرضاً على الإطلاق؟ الجواب؛ هو الاستعانة دائماً بـ «العقل». ولعلّ هذا هو السبب الذي دفع الإمام عليه السلام إلى إلحاق كلامه بالقول: «**وَتَوَقَّ مُجَازَفَةَ الْهَوَى بِدَلالَةِ الْعَقْلِ**»[1]، فمن أجل أن لا تُباغتك نفسك فإنّ عليك الاستعانة بالعقل. فإنّ من أبرز الفنون التي يستخدمها المصارع في نزاله هو محاولته إغفال خصمه عن الحركة الفنّية التي يهمّ بالقيام بها، فيصرعه أرضاً وهو في غفلة عنه، لأنّ الخصم لا يستطيع في هذه الحالة أن يتنبّأ بدقّة بما يروم القيام به من حركة. وكلّما كان المصارع أكثر حنكة ومهارة كانت حركاته القادمة أكثر خفاءً على خصمه. وإنّ نفسَ ابن آدم تستخدم عين هذا الأسلوب.

المراد من صراع الإنسان مع نفسه

الإنسان في صراع مع نفسه، فهل يعني ذلك أنّ هناك موجودين؛ أحدهما النفس والآخر الإنسان؟ وهل إنّ نفسي - يا ترى - شخص أجنبيّ عنّي كي تُصارعني؟ من هو «**أنا**»؟ فنحن نُقرّ بأنّ لدينا عدوّاً داخليّاً. لأنّ من جملة التعبيرات المشهورة في الأحاديث هو: «**أعدى عدوّك نفسُك التي بين جَنبَيك**»[2]، إذ تظهر في وجودنا ميول ونزعات مختلفة يمكن تقسيمها بشكل عامّ إلى مجموعتين:

1. النزعات التي يكون الميل الأوّليّ فيها إلى الصعود والرُّقيّ.
2. النزعات التي يكون الميل الأوّليّ فيها إلى النزول والتسافل.

والمجموعة الثانية هي نزعات حيوانيّة نشترك فيها مع جميع الحيوانات. ويُطلق على مجموع هذه الميول، أو بتعبير آخر على ذلك الجزء من كياننا الذي تُنسب إليه تلك الميول، بمصطلح «**النفس**». كما أنّ لنا في المقابل ميولاً أخرى سامية؛ كحبّ الحقيقة، وحبّ الكمال، وأمثال ذلك، وإنّ

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص 163

(2) م. ن، ج 67، ص 64.

الذيـن يتمتّعـون بصفاء الباطن يدركـون ميلهم إلى التقرّب إلى الله تعالـى. ويُطلق على أمثال هذه الأمـور، التي تدعو الإنسان إلى الرُقيّ والتسامي والتقرّب من الله عزّ وجلّ، اسم «**العقل**» في مقابل تلك العوامل الحيوانيّة.

فهـذان المصطلحان هما مصطلحان أخلاقيّان، وفي حقيقة الأمر إنّهما هما اللّذان يتصارعان ويتقاتـلان مـع بعضهما البعض. بالطبع إنّ ما جاء فـي هذه الرواية يختلف بعض الشيء عن هذا المصطلـح الأخلاقـيّ. فهنا تصـوّر الرواية الـ «**أنا**» فـي حالة صراع مع نفسه. فهـي لا تقول: العقل يصارع النفس، بل تقول: إنّك أنت في صراع مع النفس ولا بدّ من أن تستخدم العقل.

الفارق الأساس بين النفس والعقل

إذن فالمطروح هنا هو ثلاثة أمور:

1. «الأنا» التي تتّخذ القرارات.
2. أهواء النفس.
3. العقل.

ولعلّ بإمكاننا القول إنّ كلّ تلك الأمور ترجع إلى قوى موجود واحد. فكلّ امرئ هو موجود واحد ليـس أكثر وإنّ لهذا الموجود قوى ومراتب وجوديّة مختلفة وهو يكتسب أسماء متنوّعة بحسب القوى المختلفـة. وقد ينشأ بين هذه الحاجات تعارض وتضـادّ، وعندها سيقال: ثمّة قوّتان تتصارعان مع بعضهما. وفي مثل هذه الحالات يحصل الصراع بين النفس والعقل، وبين الإنسان والنفس.

وعلينـا الحـذر في هذا الصراع لئلاّ نؤخَـذ على حين غرّة. فنشاط النفـس يكمن في حثّنا على إشباع غرائزها.

فليس هناك قاعدة خاصّة لما تريده النفس وتطلبه في كلّ آن، بل يعتمد ذلك على ظروف معيّنة من قبيل أعمالنا وسلوكيّاتنا، وطبيعة البيئة المحيطة بنا، والحالة الفسلجيّة لنا. إذ لا بدّ من تفاعل العديد من العوامل مع بعضها البعض من أجل أن ينشأ عند الإنسان ميل معيّن نحو أمر ما.

بـل إنّ الإنسـان نفسه لا يسعه التنبّؤ بشكل دقيق بما ستطلبه نفسه بعد حين. ومن هذا المنطلق فإنّ فعل النفس - كما تعبّر الرواية - يُبنى على المجازفة؛ أي الجزاف، خلافاً للأحكام العقليّة التي تكون دائماً ضمن ضوابط معيّنة. فإنّ للعقل حكماً في كلّ موضوع، بل إنّه يقضي حتّى في التضادّ بين حكمين من أحكامه، وكلّ ذلك يكون قابلاً للتدوين.

التغلُّب على النفس بتقوية العقل والعلم

علينا أن نعلم أنّ الشيء الوحيد الذي باستطاعته أن يجعلنا نصمد أمام النفس ونأمن مباغتتها هــو الإفادة من قوّة العقل. ومن أجل الإفادة مــن العقل لا بدّ لنا أن نعلم أنّ العقل قابل للتقوية. إذن يتحتّـم علينــا الإحاطة بأحكام العقل واستخدامـه في مواجهة الميول النفسانيّــة؛ تلك الميول التي استجــاب لهــا طيلة فترة العمر، أو التي يستطيع حَدْسها انطلاقاً من تجاربه السابقة إذا لم يكن قد استجاب لها لحدّ الآن.

وهذه توجيهات عامّة من شأنها أن تُعيينا على عدم التفاجؤ في المواجهة مع النفس. على سبيل المثــال هنــاك قاعدة عقليّة عامّة تقول: إذا كنت تسير على حافّــة الوادي فإنّ احتمال سقوطك فيه يكون كبيراً. فإن أردتّ تجنّب السقوط فلا بدّ أن تبتعد عن حافّة الوادي قليلاً! بمعنى: إذا كنت ترغب فــي عدم التورّط في ارتكاب المعصيــة فعليك الابتعاد بعض الشيء عــن مواطنها، وذلك باجتناب بعض الأمور غير المحرّمة أيضاً؛ فمثلاً: عليك تجنّب النظرة الأولى كي لا تقع في النظرة المحرّمة.

لكــنّ هــذا الحكم العامّ للعقل لا يكون مجدياً في كلّ حال؛ فقد يطرأ أحياناً أمر لا يستطيع المرء عندها أن يتّخذ قراراً حاسماً فيما إذا كان لا بدّ من الإقدام عليه أم لا. فمضافاً إلى الإفادة من قوّة العقــل فإنّــه يتعيّن علينا في مثل هذه الحالات تحصيل العلم بهــذه الأمور كي نعلم ما إذا كان الأمر واجبــاً أو محرّماً، ونقف على حدود وجوبه وحرمته. فالغيبــة للآخرين على سبيل المثال تكون أمراً حراماً تارةً، ومباحاً حيناً، وواجباً طوراً. إذن علينا أن نُحيط علماً بجميع تلك الحدود.

ومن هذا المنطلق يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجملة التالية: «**قِفْ عِنْدَ غَلَبَةِ الْهَوَى بِاسْتِرْشَادِ الْعِلْمِ**»[1]؛ فإن غلبتــك نفســك وفرضت عليك ميلاً إلى أمر معيّن، فعليك – مــن أجل أن لا تقع في الخطيئة – أن تعلم على وجه الدقّة هل كانت إجابة النفس فيما تطلب جائزة أم محرّمة؟ إذ ليست تلبية كلّ ميل من ميول النفســ محرّمة. فلدينا الكثير من المباحات المنسجمة مع أهــواء النفس ورغباتها. فالتمتّع بالأماكن الطبيعيّة الخلاّبة والمشي على ساحل البحر وما إلى ذلك هي من المباحات الموافقة لهوى النفس.

إذن بالإضافــة إلــى امتلاك قوّة العقل وتقويــة هذا الجانب لا بدّ من الإفــادة من العلم والتفقّه بمــوارد الحلال والحــرام ومواطن السقوط والصعود. وهذا التوجيه يتمّــم التوجيهات التي سبقته. فعندمــا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ ما مضمونه؛ أنــه عليك الإفادة ممّا لديك من علم حاضــر لدفع الشرور، ومن أجــل الإفــادة من العلم لا بدّ من الإتيان بالعمل الخالص؛ كان كلامه عن العلاقة بين العلم والعمل.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص 164.

لكنّه عليه السلام عندما يقول: كي لا تخسر المعركة مع النفس فإنّ عليك استخدام العلم. فإنّه يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: إنّ الإفادة من العلم تكون بالعمل الخالص؛ ولكن ما فائدة العمل الخالص؟ وهنا يشير الإمام عليه السلام إلى مبدأ جوهريّ للغاية. فالحقيقة هي أنّنا لا نهتمّ كما ينبغي بالدين ومعارفه، ولا نعدّ الدين ضروريّاً أو نعير للعمل بأحكامه أهمّية تُذكَر، فضلاً عن اهتمامنا بالعمل الخالص الخالي من أيّ شائبة!

العقيدة الصحيحة أساس الأخلاق الكريمة

يقول البعض: ليس من الضروريّ أن يكون المرء متديّناً، بل حسبه أن يكون إنساناً صالحاً! وهم يقصدون من الصلاح هنا الصلاح الأخلاقيّ؛ أي أن يكون حسَن الخلق، صادق القول،...الخ.

وهنا يأتي سؤال مفاده: ما هي العلاقة بين الدين والأخلاق؟ فإنّ من المسائل البالغة الأهمّية والمطروحة على مستويات عالية في الأوساط الفلسفيّة العالميّة هي مسألة ماهيّة العلاقة بين الأخلاق والدين. فالبعض يقول: إنّ للأخلاق علاقةً مباشرة بالدين؛ فلا يمكن أن يكون المرء متخلّقاً من دون اعتقاد راسخ بالدين. والبعض الآخر يقول في المقابل: إنّ الأخلاق العلمانيّة أمر ممكن؛ إذ من الممكن أن يكون المرء حسن الخلق بعيداً عن أيّ التزام دينيّ.

إنّ تصوّرنا عن الدين والصلاح هو تصوّر خاطئ في العادة. فعندما يقال لنا: كونوا أناساً صالحين، فقلّما يتبادر إلى أذهاننا أنّ ذلك يعني العمل على ترسيخ معتقداتنا الدينيّة والاهتمام بأعمالنا العباديّة، ونظنّ أنّ المراد من هذه الجملة هو السعي باتّجاه تحسين أخلاقيّاتنا العامّة. فإن كنّا نرغب حقّاً في إصدار حكم صائب بخصوص هذه المسائل فلا بدّ أن يكون تفكيرنا فيها أكثر عمقاً وشموليّة. علينا أن نطيل التأمّل في أقسام الدين المختلفة وكيفيّة ارتباطها مع بعضها البعض؛ كالعلاقة بين المعتقدات والأخلاق، وبين الأخلاق والفقه،...الخ.

ينبغي بناء تصوّر صحيح حول النفس والعالم

من الممكن أن يتبادر إلى الذهن في مقابل التوصية بالعمل الصالح السؤال التالي: لماذا يعتبر هوى النفس سيّئاً أساساً؟ فما هو الإشكال في أن يرغب الإنسان في تناول طعام لذيذ ومحلّل شرعاً في نفس الوقت؟ ومَن قال إنّ هوى النفس (وهو ما تطلبه النفس وتميل إليه) هو أمر سيّئ؟ ومَن الذي أوصانا حقيقةً بأن نأتي بكلّ عمل خالصاً لوجه الله؟ فما الذي سيحصل إن لم نُخلص في العمل؟ وما العيب في أن يساعد المرء فقيراً مثلاً ثمّ يُحبّ أن يذكره الناس بهذا العمل؟

إنّ هــذه الأمــور تبدو بسيطة وسطحيّــة للوهلة الأولى لكنّها – في واقع الأمــر – تعكس مدى كون ثقافتنــا معرّضة للخطر نتيجة الاختلاط مع الثقافات الإلحاديّة المعادية. فنحن نلاحظ من ناحية أن الانصياع لهوى النفس ونزواتها وفقاً للمنطق القرآنيّ هو في عداد الشرك، وأنّ الثقافة الإسلاميّة تَعـدّ الهوى من الأمور الخطيرة جدّاً التي يتحتّم اجتنابها، لكنّنا نشاهد – من الناحية الأخرى – أنّ هناك ثقافة تدبّ شيئاً فشيئاً في أجيالنا المعاصرة تحسّن صورة اتّباع الهوى وتزيل قبح هذا العمل وتحرّض المرء على الردّ على مَن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر بعبارة: «إنّني أحبّ ذلك». هذه الكلمة جاءتنا من الثقافة الغربيّة وهي تُلقَّن للأطفال من خلال الأفلام والبرامج المختلفة. بل حتّى أنّ عبارة: «في أمان الله» مثلاً أخذت تُحذَف بالتدريج من ثقافتنا.

هــذه النزعــات الإلحاديّة هــي من منجزات عصــر الحداثة وما تــلا هذا العصــر الذي ينادي بضــرورة مطالبة الإنسان بحقّه والكفّ عــن العمل على أداء الواجب، ويقول: «لقد سعى الإنسان في طريق أداء التكليف بما فيه الكفاية والآن عليه المطالبة بحقوقه». هذه الثقافة أمست تتغلغل بهدوء حتّــى في أوساط المسلمين والمتديّنين فلم نعد نشاهد اليوم من يبني أمره على العمل بما عليه من واجب إلاّ القليل.

فــإذا أردنا إيجاد حلّ لهذه المسائل فعلينا سبــر غور عللها وجذورها وطرح أسئلة من قبيل: أيّ شــيء هــو أنا؟ ما هي حياتي الحقيقيّة؟ ما هي اللذّة؟ وهل هي مقتصرة على الطعام والنوم وما إلى ذلك؟ هل هناك حياة أخرى غير الحياة الدنيا؟ هل ثمّة لذائذ أخرى غير تلك؟

فالذين لا تتخطّى حدود وجودهم الحدود الحيوانيّة لا يرون اللذّة إلاّ في إشباع البطن والشهوات. لكنّــه يوجد فــي نفس هذه الحياة الدنيا من ذاق لذائذ من نمط آخر وهو يصرّح بالشكل القاطع: لو جُمعــت جميع لذائذ العالم فإنّها لا تُقاس بهــذه اللذّة. كما أنّهم يقولون من ناحية أخرى: إنّ الحياة الدنيــا برمّتها لا تســاوي قياساً بالحياة الأصليّة أكثر من رمشة عيــن، وإنّ الحياة الأصليّة تبدأ بعد الموت. فاليوم هو يوم العمل، إذ لن يكون هناك مجال للعمل غداً. فإن نحن عملنا على ترسيخ هذه المعتقدات في أنفسنا فإنّ الكثير من الإشكالات والمسائل ستُحلّ بصورة سهلة.

الإخلاص غاية الدين والإيمان

ورد فــي وصية الإمام الباقــر عليه السلام : «**وَاسْتَبْقِ خَالِصَ الأَعْمَالِ لِيَوْمِ الْجَـزَاءِ**». ذكرنا أنّ شكر العلم يكون بالعمل به. لكن لا بدّ من إنجاز هذا العمل بحيث يكون مفيداً يوم القيامة. ولعلّ في كلمة «استبق» إشارةً إلى أنّ بعض أعمال الخير تُنجَز بشكل صحيح في حينها لكنّها تبطل فيما بعد. ومن

هنــا يقــول عزّ من قائل في كتابــه العزيز: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[1]، فقــد يُنجز العمل الصالــح في وقــت معيّن لكنّه يبطل بعمل آخـر بعد حين. فهنـاك من العوامل مــا يُبطل أعمال عمر بأكمله في لحظة واحدة، كالارتداد مثلاً.

إذن فعندما نهمّ بالقيام بفعل خير فإنّه لا بدّ:

أوّلاً: أن نعلم هل كان هذا العمل عملاً صالحاً، وأن نقوم به بالكيفيّة التي تُرضي الله عزّ وجلّ.

ثانياً: أن تكون نيّاتنا سليمة خالصة من الشوائب.

ثالثاً: أن نحذر لئلّا نأتي بفعل يُبطل ذلك العمل»[2].

قال الله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[3]، وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[5].

ومعنــى الإخلاصُ أن تكونَ نيّتك فيما تقــوم به لله، لا تريد غيرَ الله، لا سمعــةً ولا رياء ولا رِفعةً عند أحد، ولا تزلّفًا، ولا تتقرب من الناس مدحًا، ولا تخشى منهم قَدحًا، والله سبحانه غنيّ حميد، لا يرضــى أن يشــرِك العبد معه غيرَه، فإن أبى العبد إلا ذلك ردّ الله عليه عملَه وحمله عواقب ذلك، وقد قال الله سبحانه في آخر سورة الكهف: موجّهاً أهل الإيمان للعمل الخالص: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[6]، ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: صوابًــا يتابــع فيه النبي، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي: عليه أن يخلص لله عزّ وجلّ، ولا يبتغي إلا وجهه.

فالعمل إذا كان لله فهو مقبولٌ، وصاحبه مأجورٌ عليه، وإن كان لغير الله فهو مردودٌ على صاحبه، ويكــون عليــه وزرًا، وإن الله ليجــازي الصادقين بمجرّد نياتهــم الصادقة، حتى ولو لــم يوفّقوا إلى العمل، والله جل جلاله متّصف بالحمد والكرم، وإذا أحسنَ العبد القصدَ ولم تتهيّأ له أسباب العمل فإنّــه يؤجَــر على تلك النية وإن لم يعمــل، كرَمًا من الله وفضلاً، بل إن همّ بعمــلٍ صالح يؤجَر عليه العبــد وإن تخلّف العمل، روى الإمــام الصادق عليه السلام قال: «**إن المؤمن لَيَهــمّ بالحسنة ولا يعمل بهـا فتكتــب له حسنة، وإن هو عملها كتبت له عشر حسنات، وإن المؤمن ليهم بالسيئة أن يعملها فلا يعملها فلا تكتب عليه**»[7].

---

(1) سورة البقرة، الآية 264.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ألقاها بتاريخ 10 آب 2011م

(3) سورة البينة، الآية 5.

(4) سورة الزمر، الآية 3.

(5) سورة النساء، الآية 146.

(6) سورة الكهف، الآية 110.

(7) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج1، ص51.

وقالـت سيدة نساء العالمين أم أبيها فاطمة الزهراء عليها السلام: «**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكر معقولها**»[1]، وقـد بينـت مولاتنا الطهر البتول عليها السلام بكلمتها هذه أن مرجع ومـآل الشهادة بـ (لا إله إلا الله) هو الإخلاص، وقد جعلـه الله تعالى تأويلاً لهـذه الكلمة التي هي مفتاح دار السـلام، وأس هذا الدين العظيم، لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وكلمة الإخلاص، فإنّها الفطرة**»[2].

والإخلاص لله تعالى-إضافة لآثاره الأخروية- من أكبر عوامل التقدّم والنهوض بالأمة واستنقاذها من واقعها المر، فإنّ المخلص يُضحّي بوقته وصحّته وماله ونفسه لخدمة الإسلام والمسلمين، أما غيـر المخلصـ فتراه يُضحّي بمصالح الدين والأمة لأجل أن يعيش أياماً معدودات . . . وقد ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأمّا علامة المخلص فأربعة: يسلم قلبه وتسلم جوارحه، وبذل خيره، وكفّ شرّه**»[3]. وعـن أمير المؤمنين عليه السلام: «**سادة أهل الجنة المخلصون**»[4]. وورد عنه عليه السلام: «**الزم الإخلاص فـي السر والعلانية والخشية في الغيـب والشهادة والقصد في الفقر والغنى والعدل في الرضا والسخط**»[5].

وقـال عليه السلام: «**الإخلاص غاية الدين**»[6] وقال سلام الله عليه: «**الإخلاص أعلى الإيمان**»[7]، وجاء فيما يقوله المسلم المحب في زيارته عليه السلام: «**السلام على الإمام التقي المخلص الصفي**»[8].

جعلنـا الله وإياكـم مـن المهتدين بهدي سيد الأنـام المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآلـه المعصومين الكريم، ومن المقتفين آثارهم والسالكين منهاجهم، والآخذين بحجزتهم، والماكثين في ظلّهم، إنه أرحم الراحمين وما ذلك عليه بعزيز، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 29، ص221.
(2) م.ن، ج74، ص290.
(3) م.ن، ج1، ص121.
(4) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص284..
(5) م.ن، ص81.
(6) م.ن، ص19.
(7) م.ن، ص51.
(8) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج97، ص 375.



مركز نون، من مؤسَّساتِ جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ، يختصُّ بتخطيطِ البرامجِ والمتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وتأليفِ وإعدادِ المتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ العامَّةِ، مُراعياً القواعدَ المنهجيَّةَ والبحثيَّةَ والتربويَّةَ، وحِفظَ الأصالةِ الإسلاميَّةِ.



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

